



الجزء الأول

obeikandi.com

كان إشعال النار .. مصدر سعادتها

جاءتني الأم ومعها ابنتها البالغة من العمر سبعة عشر عاماً . كانت الأم سيدة جميلة الشكل ، أنيقة الملبس في اعتداد واحترام ، وقوة في حركاتها وسكناتها .. مهذبة في حديثها اخادئ المترن .. كان يظهر عليها في بعض الأحيان قلق مختلط بشعور مزعج حين سردها قصة ابنتها التي جاءت تطلب علاجها .

وعلى حسب عاداتي بدأت بمقابلة الأم أولاً على انفراد حتى لا تكون شكواها من ابنتها على مسمع منها ، ولما سألتها عن فحوى ما يسخطها على ابنتها ، سردت على مسامعي قصة كاملة متناسقة الأحداث .. وكان أساس شكواها من ابنتها أن الفتاة تخفي أدوات المنزل وتلقيها بعيداً ، وتدخل منازل الغير وتعبث بمحتوياتها . وتعدّ تشديد أهلها بالرقابة عليها مضايقة تقابلها بتحطيم أثاث المنزل وإشعال النار فيه . ولم تجد الأم أية وسيلة أخرى لعلاجها سوى عرضها للفحص الطبي النفسى للعلاج والإفادة بما يتبع من أسلوب تجاه انحرافات السلوكية ..

وبعد أن فرغت الأم من حديثها ، طلبت إليها أن تبقى في غرفة الانتظار ريثما أَدعوها بعد الانتهاء من مقابلة الفتاة . وأكدت لها أنه سيكون في وسعي بعد الانتهاء من مقابلة ابنتها أن أفتيها في أمر الفتاة وأرشدتها إلى ما ينبغى عليها أن تقوم به لعلاجها .. ثم دخلت الفتاة .

وإبادر فأقول إن الفتاة تركت في نفسى منذ الوهلة الأولى أثراً

طياً . . فمظهرها ليس فيه ما يدل على انحراف ، بل إنها على النقيض من ذلك تماماً . كانت تبدو نموذجاً حسناً لبنات الطبقة المتوسطة . . . كانت نحيفة الجسم ، ضئيلة الحجم ، ضعيفة البنية بشكل واضح . . شكلها من حيث الجمل يعتبر فوق المتوسط وفى عينيها العسلتين الواسعتين ملامح الذكاء الممتزج بالقلق . . مظهرها العام يوحي بأنها أصغر سناً من عمرها الحقيقى . . حركاتها وحديثها يتسمان بالتردد الممتزج بقدر واضح من الشك والتوجس ، شديدة الخجل . . عديمة الثقة بالنفس ، وبالناس .

بدأت الفتاة تتحدث وتسرّد تاريخ حياتها والأحداث المختلفة التى مرت بها ، وتوصف إحساسها من ناحية والديها وناحية المجتمع والناس . . وبرداسة الحالة تبين ما يأتى :

قدر لها أن يحى ميلادها ، وسط خلاف شديد بين والديها أخذ يتفاقم ويشد حتى انتهى إلى الانفصال بينهما قبل أن تولد بشهر ، ثم إلى الطلاق وهى ما تزال تدرج إلى الشهر الثامن من حياتها . طال زمن الإرضاع معها حتى امتد إلى ثلاث سنوات ، ولم تستطع ضبط وظيفة التبول حتى أدخلت إصلاحية بعد أن جاوزت العاشرة . .

أصبحت وهى فى الثالثة من العمر بحمى ألزمها الفراش ثلاثة شهور ، وبعد أن شفيت منها كانت تصاب بتوبات صرع متكررة ومصحوبة بأحلام مخيفة ، تهب من نومها صارخة وهى فى حالة رعب شديد .

بدأ الانحراف فى سلوكها منذ سن مبكرة جداً ، فكانت تخفى كل

ما تصل إليه يدها دون أن تقصد إلى الانتفاع بما تخفى فيما بعد . . ولم يردعها العقاب المؤلم (الكى بالنار مثلاً) عن الاستمرار فى هذا السلوك . . كانت تخفى المال والحلى عن أمها . . كما كانت تخفى نفسها أحياناً ، ولا تعباً يبحث أمها عنها دون أن تهتدى إليها . طفولتها كانت تتميز بالحرمان والشقاء ، فقد تزوج أبوها وهى فى الثالثة ، وتزوجت أمها وهى فى السادسة ، وكانت الأم تحدثها عن أبيها حديثاً بشعاً مخيفاً ينفرها منه ويغضها فيه . . ولكن الأم حين تضيق بأعمال ابنتها كانت ترسلها إلى بيت أبيها فكان هذا عند الطفلة أقسى عقاب لأنها كانت تكره أبها وتمقت الذهاب إليه وترى فيه رجلاً بغيضاً ، مقتراً أنانياً ، لا تطيب الحياة معه .

وفى بيت أبيها كانت تسرق أيضاً كل ما تصل إليه يدها وتخبئه ، وكانت سرقها تتناول مواد الطعام ، ومفاتيح الأبواب والمال والملابس ، كما كانت تكيد لأبيها وزوجته بمختلف صنوف الكيد دون أن ترتدع من العقاب ، وقد اطردت وسائل أبيها فى العقاب حتى بلغت من القسوة والعنف مبلغاً لا تزال آثاره باقية مجسماً حتى وقت الفحص الطبي النفسى لها .

كان الأب رجل أعمال معروفاً فى جميع الأوساط الراقية التى يتحرك فيها بمبالغته والاعتداد بالكرامة . . وقد نالت الأسرة نصيب الأسد من صلابته هذه . . إذ كان يحكم أهل بيته بديكتاتورية لا تقبل المراجعة ، الكلمة دائماً كلمته . . والرغبة دائماً رغبته . . والويل لمن يناقش حقه فى فرض إرادته . . لأنه - كما يعتقد فى نفسه - أقوى وأعقل وأبعد نظراً من الناس كلهم ، وكرامته الشامخة كالجبل الأشم لا تقبل أن ينزل إلى مدارك

الاعتذار عن غلظه أو الرجوع في رأى أو مجرد مناقشته . . كان أنانياً ،
مقترّاً . ولكل هذه الصفات السابقة لم تدم حياته مع والده الفتاة . . وتم
الطلاق بينهما .

وبعد أن جاوزت الفتاة الخامسة بقليل ، كانت تحس الرغبة الجامحة
في رؤية النار المشتعلة ، وقد عرضتها هذه الرغبة في إشعال النار واللعب
بها إلى تجربة مفرطة ، إذ هبّت فيها ذات يوم وهى طفلة وأكلت شعرها ،
ولولا إصرار أهلها إلى نجدها لقصت عليها ، ولكنها برغم ذلك ظلت على
تعلقها بالنار . .

وحين بلغت السابعة من العمر لم يكن للطفلة مكان مستقر ، إذ
كانت حياتها مضطربة بين منزل أبيها ومنزل أمها ، ولم يكن أحد يحتمل
كيدھا أمدأ طويلا ، فكان والدها يرسلها إلى أمها تخلصاً من مشاكلها .
وقد شقيت في البحث عن الطمأنينة والحب والعطف بين الاثنين ، ولكنها
لم تلق غير الكراهية والحرمان .

ولما بلغت السابعة ألحقت بالمدرسة ، ولكنها سرعان ما هربت منها ،
وحاول والدها أن يردعها بالضرب والإهانة ولكن دون جدوى . . وانتهت
حياتها المدرسية بعد حين قصير . وعادت إلى اللعب وممارسة عملها المفضل .
وهو السرقة وإخفاء ما تسرقه ، وسيان عندها أن يكون ذلك من صنوف
الحلوى أو مفاتيح المنزل . فإنها لم تكن تنتفع بما تسرقه ، بل كانت
تخبئه حتى يضيع أو ينكشف أمره مصادفة .

واستمر سلوكها مطرداً نحو الانحراف دون أن يردعها عقاب أبيها
وقسوته ، حتى اضطر الأب في نهاية الأمر إلى إرسالها إلى إصلاحية

الأحداث ، وكانت قد تجاوزت العاشرة ، انتقلت الفتاة إلى برودة الإصلاحية التي تضم أكثر من ٣٠٠ طفل ، وأخذت نفسها تذوب في هذا القطيع الإنساني الضخم البائس المنحرف السلوك . ولم يمض وقت طويل حتى أخذت أحوالها تتغير إلى الأسوأ ، نحو ميلها إلى العدوان ، فكانت تحرق الأوراق الرسمية ، وتلف كتب التلميذات وأوراقهن وتفسد الخيط الذي يستعمل في أعمال الإبرة ، وتختبئ حاجات التزييلات وتعتدى عليهن أحياناً بالضرب ، وتسرق بعض أدوات الإصلاحية لإخفائها . وظلت على هذا النحو حتى أخرجت من الإصلاحية بعد أن بقيت فيها أكثر من أربع سنوات .

فعدت إلى التارجح بين أبيها وأُمها ، وكلاهما راغب عنها . وعادت إلى سابق سيرتها من السرقة وإشعال النار . وفي بعض الأحيان كانت تضرم النار في فراش أبيها ، وفي أحيان أخرى - أثناء نوبات تهيجها - كانت تضرمها في أى شيء تجده ، وكأنها تأتى عملاً من أعمال التهور . . ومن ذلك أنها سلطت ذات يوم عدسة على لحاف منشور لبعض الجيران فأحرقته . وكانت أمها تحمل عقابها في بعض الأحيان ، فكان هذا التناقص لا يروق الطفلة . . وما تزال بها تعاكسها وتثيرها حتى تنهال عليها ضرباً وإيذاء قهراً وتستريح . .

ولما فاض بالأم وعجزت عن أن تقاوم انحراف سلوك الفتاة أحضرتها للفحص والعلاج . وكانت حينئذ في السابعة عشرة من العمر . . فلجأت أخيراً إلى كطبية نفسية ، بعد أن عرضتها على الكثير من الأطباء ، ولكنها لم تصل إلى أى نتيجة تؤثر على علاجها من هذا الانحراف في السلوك . .

التحليل النفسى للحالة :

أخذت كطبيبة نفسية أنقب فى لفائف العقل الباطن بحثاً عن الأسباب والظروف التى تدفع الفتاة إلى هذه التصرفات المنحرفة . . . وكنت أحاول أن أصل إلى أعماقها . . . إلى عقلها الباطن . . . لاستخراج الجرثومة التى ترقد فيها والتى تسبب لها الانحراف . . . وقد أمكننى بعد عدة شهور من العلاج تعديل هذا السلوك المنحرف والوصول إلى نتيجة مرضية فى علاجها .

فهذه الفتاة كان لحياة البيئة المفككة التى عاشت فيها تأثير سيئ على نفسياتها ، الأمر الذى أدى إلى انحراف سلوكها نتيجة لاضطرابها الانفعالى . . . ويمكن القول بأنها لم تنعم بحياة أسرية مترابطة وأن طفولتها كانت طفولة مهملة غير مستقرة ، بعيدة عن الطمأنينة مليئة بالانفعالات النفسية المؤلمة .

• فالأحلام المزعجة . . . فى الطفولة المبكرة لها ، هى فى الأرجح أحلام القلق النفسى ، تفصح إلى حد كبير عما كان يملأ نفسها من الاضطراب والحرمان من الحب والعطف والحنان وعدم الشعور بالرضا . . .
• والسرقة التى كانت تقتصر فيها على إخفاء ما تسرق دون الانتفاع به . . . كانت بمثابة الاحتجاج والنداء والتعبير عن الحرمان من الحب والحنان .

• وإشعال النار كان من السمات البارزة فى انحرافها ، وأن تكرار حوادث الإشعال مع غياب العوامل الشعورية فيها وتأكيد الفتاة

جهلها بالدوافع إلى ذلك العمل ، فيما عدا رغبته في رؤية النار المشتعلة ،
ليشير إلى أن الإشعال يدخل في نطاق الأعمال الإجبارية العصابية التي
تقررها عوامل لا شعورية . .

فإشعال النار عمل يصدر عن البعض ، وهو إفصاح عن نزعة نحو
التدمير أو الانتقام من حب غير محاب . وكلما ازداد تأخيرها بالعوامل
النفسية عند مشتعلي الحريق يتضح لنا أنهم بعيدون عن الرضا والاستقرار
العادي ، فهم يعيشون : نهياً لمخاوف مرضية تجعلهم في حالة توتر لا يطاق ،
فيكون الإشعال بمثابة الانفجار الذي يعينهم على التخلص من تلك الحالة
إلى حين . . وقد يكون أيضاً لإضرارها المتكرر في فراش أبيها دلالة النفسية
التي لا تخفى وهي حقدها وكراهيتها ورغبة انتقامية منه .

فالحياة التي مرت بها الفتاة مليئة بالإهمال والقلق والبغض والحرمات ،
خالية من العطف والحب والإحساس بالأمان . . هي الحياة التي تنمو
فيها النزعات الشاذة والدوافع المريضة . .

فبالمراجعة القليلة لحياة هذه الفتاة يظهر شعور قوى بالخطيئة مع
نزعة مرضية إلى العقوبة حيث إنها لا ترتاح إذا غضت أمها النظر عن
عقابها . . فكانت لا تزال تثيرها حتى تنال عليها ضرباً مبرحاً . . ثم
تهدأ بعد ذلك . . وإنه مما يزيد الشعور بالخطيئة تلك الطبيعة المرضية التي
تتلذذ بالألم سواء في مظهره المادى أو المعنوى .

ومن المرجح أيضاً أن إخفاقها المتكرر في الهرب من المدرسة كان
مرجعه إلى الشعور بالخطيئة . . فإن مراجعة تلك المحاولات تكشف عن
أسلوب : واحد فيها لا يتغير ويتشى بها دائماً إلى الضبط والافتضاح ،

ولو لم يكن الشعور بالخطيئة ورغبة العقاب وراء محاولات الهرب لما اختارث هذا الطريق المفتوح ولما تشبث به بعد وضوح فشله عدة مرات . .

عوامل الاضطراب :

- ١ - مجيء ميلادها مع خلاف شديد بين والديها انتهى بالطلاق وهي في الشهر الثامن ، فقدّر لها أن تقوم برعايتها وإرضاعها أم قلقة مضطربة نتيجة الظروف الأسرية القاسية التي انتهت بالطلاق . . ومما لا شك فيه كان قلقها النفسى ينعكس أثره في معاملتها لابنتها .
- ٢ - نشأة الفتاة في أسرة مفككة حرمتها من الدفء الأسرى والحب والحنان والاستقرار والشعور بالانتماء .
- ٣ - سوء معاملة الطفلة من أمها وعقابها بأقسى أنواع العقاب (كاللكى بالنار مثلاً) وكذلك قسوة الأب وأنواع العقاب العنيفة التي كان يلجأ إليها في معاملتها ، ولاسيما أنها كانت تكرهه وترى فيه رجلاً بغيضاً مقترراً ، أنانياً ، لا تطيب الحياة معه كما أفهمتها أمها . فكان انتقامها لهذه المعاملة القاسية يبدو في صورة السرقة وإشعال النار .
- ٤ - إرسال الفتاة إلى الإصلاحية واختلاطها بالمجرمين هناك وسوء معاملة الجميع لها لما كانت تأتى به من أعمال غير لائقة زاد من إحساسها بالعدوان وزاد من سلوكها المنحرف .
- ٥ - عدم استقرار الفتاة واستمرار تنقلها بين أبيها وأمها وسوء معاملتها وحرمانها من الحب جعلها تشعر أنها منبوذة من الجميع ، فحققت هي

بالتالى على المحيطين بها وامتد ذلك إلى المدرسة والتلاميذ ثم إلى الإصلاحية ومن فيها .

العوامل السابقة : وحرمانها من الحب والحنان والعطف والطمأنينة والاستقرار ، وعدم وجود إنسان فى حياتها ترتاح إليه ويستطيع أن يقدر مشاعرها ويفهمها ويوجهها ويقف بجانبها ، أدى كل ذلك إلى انحراف سلوكها الذى ظهر منذ طفولتها ، واستمر معها كوسيلة للانتقام ممن يسيئون إليها . ومن الملاحظ أنه كلما اشتد عقابها زاد انحراف سلوكها لزيادة إحساسها بالعدوان .

كان من الأسس الرئيسية قبل أن أبدأ فى علاجها أن أوضح للأم أسباب انحراف الفتاة لحرمانها من الحب والحنان وعدم فهم حاجاتها النفسية ونشأتها فى بيئة مفككة ، وعليها أن تعمل لتعديل أسلوبها فى معاملة الفتاة حتى يمكن أن تنال حبها وحتى يمكن للفتاة أن تعطى حبها لمن حولها . . « ففاقد الشيء لا يعطيه » . . كما نهت الأم بعدم إرسالها إلى أبيها ، وأن تقوم هى نفسها برعايتها ومساعدتها على الانتظام فى العلاج . وفى أثناء علاجي للفتاة كنت أقوم بتوجيه الأم إلى كيفية معاملة الفتاة والأسلوب النفسى السليم فى هذا التعامل .

كانت الفتاة أثناء الجلسات النفسية تشكو من سوء معاملة الجميع لها وكان يصحب ذلك انفعال شديد وبكاء فى بعض الأحيان . واطمأنت إلى . . أى إلى وجود من يحس بها وبعذابها ويقف بجانبها ويمنحها من العطف ما افتقدته طوال السنوات السابقة ، وتدرجياً بدأ أسلوب الفتاة يتحسن لشعورها بالاطمئنان واستقرارها طرف أمها وعدم عودتها لأبيها . ولم يمر

أكثر من أربعة شهور حتى ظهر عليها الاتزان النفسى فى السلوك ،
وتقدير الأمور . وكانت الأم حين تلاحظ تغير سلوك ابنتها إلى الأحسن
وهدها وتخلصها من السلوك المنحرف ، يزداد تعاونها فى العلاج بحسن
معاملتها للفتاة ومحاولة فهم حاجاتها النفسية مما ساعد على نجاح العلاج
النفسى .

كما سبق نرى أن البيئة الأسرية المفككة والمعاملة القاسية من الوالدين
وعدم فهم حاجات الأطفال النفسية فى مراحل العمر المختلفة يؤدى إلى
انحرافهم وارتكابهم أسوأ الأعمال لو لم يلقوا من يساعدهم ويقف بجانبهم
ويوجههم ويعالجهم نفسياً إذا لزم الأمر .

فالأسرة هى البيئة الأولى للإنسان ، البيئة التى تنمده بالمحفزات فى
كفاحه الدءوب نحو التكيف ، أو تقيم المعوقات دون ذلك الكفاح .
لذلك فإنه من البديهي أن تحقيق التضج الانفعالى ، أى الوصول إلى
صحة النفس ، لا يمكن أن يتم إلا من خلال طفولة نعت بالحب
والحنان والقدوة الطيبة والطمأنينة ، وأنه لن يستطيع أحد غير الوالدين
تزويد الطفل بذلك الغذاء الوجدانى الذى لاغنى عنه لصحة النفس .
وما انتشار الآفات النفسية فى مظاهرها المتعددة إلا دليل على أن بيوتاً كثيرة
لم تستطع أن تحيط صغارها بالحب والطمأنينة اللذين بدونهما سيعيشون
فى سقم واعتلال . فإن الذى لم يحصل إلا على القليل من الحب فى
سنيه الأولى سيظل متعطشاً إلى المزيد من هذا الغذاء الوجدانى شاعراً
بالحرمان من حقه من أن يحب عاجزاً بدوره عن أن يحب .

عاشت ربع قرن من عمرها بلا حياة

الحياة لا تخلو من كذب ورياء وخداع ، ولكنها كذلك لا تخلو من الحب والوفاء والتضحية . . الحياة مزيج من الخير والشر ، من اللذة والألم ، من السعادة والشقاء . . ويخدع نفسه من يظنها خيراً خالصاً . ويخدع نفسه كذلك من يتوهمها شراً صرفاً . . يخدع نفسه عقاباً لها أو عقاباً لغيره ، بدافع الخوف ، أو الغرور أو حب الظهور أو ما إلى غير ذلك من دوافع . ومن الناس من يستطيع أن يحلل دوافعه ، ويهدى نفسه إلى الخطأ في سلوكه أو في سلوك من حوله فيعدل عنه أو يحاول أن يتخلص مما يسئ إليه ، ومنهم من لا يستطيع ذلك فيظل يتألم ويتعذب إلى أن تأتيه المساعدة من طبيب من أطباء النفس . .

جمع الحب بينهما منذ الطفولة الباكرة ، وشهد كل مكان في منزله أو منزلها مظاهر هذا الحب . وعندما كبرا انتقل حبهما إلى المزارع الخضراء البانعة حيث كان كثير من سكان قريتهما يحلو لهم أن يشاهدوا طفلين يعبران وراء بعضهما يلتهمان قطع الحلوى أو يعبثان بزهرة قمح . . وليس هناك أقوى من حب الطفولة ، فهو باق في أذهاننا وقلوبنا حتى عندما نصل إلى الشيخوخة فنذكره ونستطعم مذاقه الخاص الذي لا يتغير برغم مرور الأيام ، وحب الطفولة قوى لأنه لا يعرف غرضاً خاصاً ، ولا هدفاً ذاتياً ، وهو أول شيء ينطبع في أذهاننا من العواطف البريئة الحلوة . .

كانت وفاء وأحمد أقارب ، هي ابنة عمته وهو ابن خالها ، والبيتان

متجاوزان ، أمها وأمه وحدة لا تتجزأ ، والأبوان صديقان لا يفترقان ، وتمتد تلك العلاقات الطيبة من الآباء إلى الولد والبنت فينعمان بالحب منذ أن عرفا الحياة ، ويأكلان ويشربان معاً . ويقضيان معاً أجمل أوقاتها . . كان الأمر كذلك عندما كانا طفلين صغيرين لا يتجاوز عمر أحمد الثامنة ولا يتجاوز عمر وفاء الخامسة . ولكن الأمور تغيرت بعد ذلك ، فقد فرضت عليهما الرقابة من جانب الأهل . وأصبح انفرادهما معاً عملية خاطئة للغاية تستوجب توجيه اللوم إليهما وبخاصة إلى وفاء ، التي شبت على أن للبنت حقاً أقل بكثير من الولد . . وأن ما يباح للولد أكثر بكثير مما يباح للبنت .

وعندما بدأت وفاء مرحلة البلوغ عوملت من قبل والديها وخاصة والدتها معاملة مختلفة ، وأصبحت محاصرة بالقيود والمحظورات والمنوعات . فوجدت أن المحظورات بالنسبة لها أضعاف المباح . ويقدر ما كان والداها يحبانها ويسهران على راحتها ، كانا في ذات الوقت يقسوان عليها من حيث لا يعلمان ، ومن ذلك مثلاً كانا يحرمان عليها ارتداء الملابس الحديثة المناسبة التي يلبسها مثيلاتها من البنات . . ويفرضان عليها الفساتين الفضفاضة التي تصل أطرافها إلى ما تحت الركبة ، وبذلك تبدو بين الأخريات غريبة وشاذة ، وتقاسى من زميلاتها في الدراسة الكثير من طعنات السخرية . .

يضاف إلى ذلك حرمانها من ممارسة جميع الأنشطة المدرسية التي تجرى عادة في نطاق الدراسة وخارجها مثل الرحلات والمعسكرات الصيفية والحفلات الاجتماعية . فكانت زميلاتها يستمتعن بوقتهن ، أما هي

فكانت تقاسى الحرمان من هذا النوع من الاستمتاع حسب رغبة والديها .
ومع ذلك كانت راضية لأنها لا تملك إلا الرضا ، سعيدة لأن يوماً
سيجيئ وستنقذ فيه من السجن المنزل لتتحرر ولو قليلاً لتشعر بما فى الحياة
من حرية .

بعد حصولها على الثانوية العامة ، أُلحقت بكلية البنات حيث
لا يوجد اختلاط ، وتقرر إقامتها فى بيت خالها حيث يستطيع شخصياً
الاطمئنان والإشراف عليها . . وكان خالها قد نقل إلى القاهرة .
ولجأت الأم إلى تكرار توجيه النصائح والتعليمات التى يجب عليها
اتباعها فى هذا الجو المنزل الجديد ، مع زيادة التشديد فى ضرورة الالتزام
بالسلوك المترم وعدم محاولة الاختلاط بالجنس الآخر . .
وكذلك لجأ والد أحمد يوجه إليه التعليمات الهامة فى هذا الصدد
ونصحه باعتبار المنطقة التى فيها وفاء منطقة محرمة عليه . .

أصبحت وفاء تحت مسؤولية خالها الذى كان لا يكف عن مراقبتها
وملاحظتها وتزويدها بالنصائح المستمرة التى لا تنتهى ، ويحرم عليها زيارة
صديقاتها ، والتعرف بمن يحيطون بهم . . ويقم حوطها سياجاً من الحراسة
والمراقبة حتى لا يختل التوازن ، لأنه كان يشعر أن وجودها فى منزلها مسؤولية
فى رقبته وأمانة يجب عليه المحافظة عليها .

كانت وفاء تقبل هذه الأوضاع القاسية راضية ، لأنها كانت
تشعر أن لابد من التحمل كى تستطيع أن تكمل تعليمها الذى طالما كانت
تحلم به . . وكانت تكبت عذابها فى نفسها وتأنم داخلها ، وتبكي حين
تخلو لنفسها من الحرمان الذى تعانىه من هذه القيود الخائفة . .

تعرفت وفاء منذ اللحظة الأولى لوجودها بكلية البنات بزميلتها هدى ومنذ بدأت المعرفة اتخذت وفاء من صديقتها مستشارة لها في كل أمورها الخاصة ، وعندما روت لهدى علاقتها بأحمد ، وجهما الجارف ، أبدت لها هدى ضيقها لأنهما في منزل واحد ، ومع ذلك لا يعطيان لهما حقه . فتجرات وفاء وبدأت تفكر في حبها لأحمد بصوت عال . وبرغم الحظر المفروض عليهما بعدم الالتقاء منفردين ، فقد تبادلوا الرسائل ، ثم اشتدت جراتهما فشربا الشاي معاً في أحد الأماكن العامة . وبرغم ذلك التطور الذي تم فيما يتعلق بعلاقتهم الخاصة ، إلا أن أحمد ظل منطوياً على نفسه ، فعلى مائدة الشاي كان حديثه يدور حول البلد وأهل البلد . . أما وفاء فكانت أكثر جرأة منه . وكانت تحاول أن تدفعه إلى أن يتكلم أكثر وبصراحة ، فكان لا يستطيع لأن القيود التي فرضت عليه منذ الصغر . استمرت معه حتى الكبر . . كانت أقوى منه بكثير . .

وتجراً الاثنان وقبل دعوة « هدى » إلى حفلة عيد ميلادها . . وهناك رأيا كيف يتحدث المحبون بصراحة وكيف يرقصون معاً ، الأمر الذي دفع وفاء إلى أن تبدى رغبتها في أن ترقص مع أحمد برغم أنها لا يعرفان الرقص .

كانت مشكلتهما الخاصة في العودة واستقبال الأسرة لهما من أعقد ما مرّ بهما من أمور . ورأت وفاء أن تقول الحقيقة ، ولكن خالها ناز وأرغى وأزبد وأخذ يقذفها بالشتائم المبرحة ، وبأنها أمانة في رقبته ولا بد أن تعود إلى أهلها كما أتت . . أما أحمد عندما وصل فقد اكتفى بسؤاله عن سبب تأخره . . ولم يحاول أحمد أن يتدخل لحسم الموقف . . وكان

يجب أن يكون رجلاً ليقف بجانبها ويمنع تنفيذ قرار عودتها إلى البلد ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . .

عادت وفاء إلى بلدتها كسيرة الجناح لا تجد ما تدافع به عن نفسها كما لا تجد من يقف إلى جانبها كي تتم تعليمها . . لقد اتحدت إرادة والديها على ضرورة زواجها على الأقل ، لكي تنقطع الألسنة التي بدأت تتكلم عن « وفاء » .

كان الزوج هو « مختار بك » أحد كبار موظفي التفتيش الذي يعمل به مع والدهما ، وهو رجل مزواج لا يهتم في حياته إلا بأمور ثلاثة . . الزواج والأكل بشراهة والترفيه بأى أسلوب . وكانت وفاء بالنسبة له صفة جديدة ، فهي جميلة صغيرة مثقفة يمكن أن تحقق له أمله في الإنجاب . . وكان « مختار بك » بالنسبة لوفاء « قضاء وقدرًا » ابتليت به ، لا تستطيع أن ترفض الزواج منه ، كما لا تستطيع بأى صورة من الصور الزواج من رجل آخر تريده هي - لقد قضى الأمر . وتزوجت « مختار بك » ، وأصبحت قطعة أثاث لا رأى لها فى أى شيء فيه ، بل لا رأى لها فى نفسها . كل ما كانت تحلم به إما أن تموت هي أو يموت هو . فلا فراق بينهما بالطلاق على الإطلاق .

وتمضى الأمور بالنسبة لوفاء ومختار بك ، وهي تزدى وتضمحل ولا تجد لديها الجرأة حتى تجتر حبها القديم . ومختار بك يأكل ويسمن ويحصل على أموال الناس بالباطل ، ويجرى وراء الترفيه بكل أسلوب . . إلى أن تحققت أمنيته وانتقل إلى القاهرة ، واشترى فيلا فى المعادى وتزوج سرّاً بالراقصة التي تعرف عليها فى ليلة زفافه بوفاء . . وراح يبحث عن ثانية وثالثة ورابعة

حتى ولو أدى الأمر إلى مطاردة « هدى » صديقة وفاء . ومحاولة الاستيلاء عليها برغم أنها متزوجة . وبرغم أنها صديقة وفاء زوجته .

نجد أن سوء معاملة مختار بك لوفاء واكتشافها زواجه السرى من الراقصة : وعودته يوماً مخموراً ورائحة الخمر تفوح من فمه . . جعلها تلح عليه في يوم ما أن يطلقها فرفض وأخذ يضربها ضرباً مبرحاً واشتد العراك بينهما ، فأخذت تدافع عن نفسها فقذفته بزجاجة فوقع على الأرض فاقد الإدراك فنقل إلى المستشفى وظهر أنه لم يمت بل جرح فقط . . وقد أصيبت وفاء بحالة انهيار عصبي شديد . . ونقلها جيرانها إلى منزل صديقتها هدى بعد نقل زوجها إلى المستشفى . .

مكثت وفاء طرف صديقتها التي حاولت بطرق متعددة مساعدتها في العلاج من الأدوار التي كانت تنتابها ؛ إذ كانت تصاب بحالات إغماء عيفة وأحياناً بصراخ وبكاء نتيجة إحساسها بدوار شديد يصيبها بعنف يكاد يفقدها عقلها ، يصاحب ذلك صداع قاتل يستمر معها ساعات كانت تلك الأعراض تدفعها إلى الصراخ . والصراخ الشديد ؛ حتى أن من حولها كانوا يظنون أنها أصيبت بجنون . . مما اضطر صديقتها هدى في النهاية إلى عرضها على للفحص الطبي النفسى والمشورة في العلاج . . وكذلك أرسلت لوالديها بالحضور لتفقد حالتها . .

حين التقيت بوفاء لأول مرة كانت نحيفة الجسم ، ضئيلة الحجم ، ضعيفة البنية بشكل واضح . . كانت شاحبة الوجه ، ذابلة العينين يبدو في ملامحها الحزن والكآبة . والدموع في عينيها تنساب بصورة مستمرة . . لم ترغب في الحديث مبدئياً ولكنها بدأت تبوح بما في نفسها تدريجياً . .

وأخذت أنفث في عقلها الباطن لأصل إلى العوامل التي أدت بها إلى حد الاضطراب النفسي . .

قبلت وفاء عن طيب خاطر أن أقوم بعلاجها ، ولم تتخل ولو مرة واحدة ، عن مواعيد الجلسات التي أقررها لها . وهذا في حد ذاته عامل يساعد على نجاح العلاج النفسي .

وأخذت تقص على تاريخ حياتها الحافل بالمآسى والحرمان من الحب والحياة والعلم ، ومن كل ملذات الدنيا ، وكراهيتها الشديدة للرجال بكل أنواعهم . . ورغبتها الملحة في الطلاق وعدم قدرتها على عودة الحياة ثانية مع هذا الزوج المتوحش المستهتر الذي لا يعرف القيم ولا يقيم لها وزناً . . حياته كحياة الحيوانات التي لا تقدر الأمور ولا العواقب ولا تعرف المشاعر .

استمر علاجها فترة طويلة ، قابلت في خلالها والديها عدة مرات وأوضحت لهما خطأهما في طريقة تنشئتها وفي طريقة زواجها ، وحرصت على ضرورة توجيههما إلى الأسلوب الصحيح لإعادة تأهيل حالتها النفسية الطبيعية وضرورة طلب طلاقها من زوجها الذي وافق على ذلك كي يستطيع أن ينطلق إلى غيرها من النساء دون قيد أو مشاكل .

تم شفاؤها وعادت إلى اترانها النفسي ، وأخذت تكمل تعليمها إلى أن تخرجت وحصلت على المؤهل العالي . . والتحققت بعمل مشرف أعاد إليها حياتها وكيانها وكرامتها بعد أن شعرت أنها فقدتها . فكانت هذه بداية حياة جديدة لوفاء التي عاشت ربع قرن من عمرها بلا حياة .

التحليل النفسى للحالة :

إن الشخص الذى تناح له فى صفه فرصة الاستمتاع بالحياة الاجتماعية السليمة ونهياً له أسباب الاختلاط بالناس وعقد الصداقات ، مثل هذا الشخص من المستحيل تقريباً أن يصاب بالاضطراب النفسى أو العقلى حتى لو كان تعساً فى أسرته .

فوجوده خارج البيت بين أقرانه ، ومشاركته لأبناء جيله فى ممارسة الأنشطة المختلفة يزوده بالطمأنينة النفسية التى قد يفتقدها فى بيته ، ويعرضه خسارته فى أسرته الصغيرة بالكسب العظيم الذى يجنيه مع أسرة المجتمع الكبيرة . .

وهذا كان يخالف الحياة التى عاشتها وفاء ، إذ حرمت من كل ملذات الطفولة التى تنفق وسنها فى المراحل المختلفة ، وكانت تعيش حياة يتخللها التزمّت المبالغ فيه ، والقيود التى شلتها عن الحركة وعن الانطلاق الاجتماعى ، وكانت محاطة بالمحظورات فى كل خطوة من خطواتها . . حتى بعد وصولها إلى القاهرة للدراسة ، أحيطت بنفس سياج الرقابة من خالها فلم يعد لها متفقد لتنسم فيه الحرية ، الأمر الذى أدى بها فى النهاية إلى الإحساس بالذلة والنقص بعد حادثة رجوعها متأخرة ليلاً وعودتها إلى أهلها بالريف ، مما أدى فى النهاية إلى قبولها الزواج بالشخص الذى فرض عليها دون أن يكون لها الحق فى إبداء رأيها فى قبوله أو رفضه . وكان من تأثير عدم توفر العلاقة الطيبة بينها وبين أمها ، أنها لا تستطيع أن تواجه أمها بمشاعرها وتصرح لها بما يحول فى خاطرها ،

لأن الأم كانت دائمة النقد اللاذع لها ، تحذرها وتنصحها بأسلوب قاس ليس فيه التفاهم الذى إذا توفر لمساعد على فتح قلبها لأمرها . ومصارحتها بما يكمن فى نفسها . . لكن وفاء تشعر أنها غريبة فى المنزل وغير مرغوب فيها ، ولذلك أسرعوا فى زواجها للتخلص من هذه الحياة .

كانت تكره الرجال وتحقد عليهم ، وذلك لأنها تعرضت لصدمات عنيفة تلقى منها وهى لم تزل فى فجر حياتها .

فالصدمة الأولى : تحلى والدها عنها وموافقته على أن تعيش حياة مترتبة خالية من نسيم الحرية بعيدة عن التطور العصرى ، وكذلك عدم وقوفه بجانبها ومعاونتها على تكملة تعليمها بعد عودتها من القاهرة .

والصدمة الثانية : قسوة خالها عليها ومبالغته فى مراقبتها وتقييدها ومهاجمته لها أخيراً بعد الحادث الأخير . ومبادرته وتصميمه على إرسائها إلى بلدتها لعدم قدرته على تحمل سلوكها المشين ورجوعها متأخرة ليلاً .

والصدمة الثالثة : جبن ابن خالها وعدم إثبات رجولته وتخليه عنها وعدم مساندته إياها فى وقت محتها ، بل ترك الأمور تسير فى طريقها ضدها .

والصدمة الرابعة : سوء معاملة زوجها لها واستهتاره بمشاعرها وتجاهله إياها ، وانغماسه فى ملذاته من خمر ونساء ، ومصاحبة الغانيات بدون حدود وملاحقته لصديقته هدى ، وبزواجه من الراقصة دون أن يقيم لها ولحياته الزوجية وزناً . . مما أدى فى النهاية إلى الانفجار العنيف بينها وبينه والذى أدى فى النهاية إلى إصابتها بالاضطراب النفسى الذى كاد أن يؤدى بها إلى الجنون لولا المبادرة فى العلاج .

ويمكن تلخيص الأخطاء التربوية التي ارتكبت في حقها فيما يلي :

١ - عدم فهم الوالدين لحاجات ولاء النفسية في كل مرحلة من مراحل حياتها وعدم تبصرهم بأصول التربية . فأحاطاها بالقيود الصارمة وحرماها من نسيم الحرية الذي يساعدها على النمو الاجتماعي والنفسى السليم .

٢ - عدم تفاهم أمها معها ومشاركتها أحاسيسها . بل مبالغتها في نقدها وإحاطتها بالمحظورات ، مما أدى في النهاية إلى الانفجار نتيجة الكبت المستمر .

٣ - تخلى والدها عنها وعدم محاولته مساعدتها على تكملة تعليمها ورغبته في التخلص منها والإسراع بزواجها من إنسان غير مناسب من كل النواحي .

٤ - إلزامها بالزواج من شخص فرض عليها على الرغم من أنه غير مستقر وغير متزن ومزواج سيئ السلوك مستهتر . دون أن يتركها لها حرية الاختيار أو إبداء الرأي . فكان الثمن أنها ذاقته معه العذاب أنواناً . وعاشت معه حياة فيها المرارة والألم والحرمان ، مما أدى في النهاية إلى إصابتها بالمرض النفسى الذى كاد يؤدي بها إلى المرض العقلى .

مما سبق نرى أنه إذا أردنا أن يعيش أبنائنا سعداء يُحبون ويُحَبَّون ينبغي أن نتيح لهم حياة هانئة في طفولتهم ، وفهم حاجاتهم النفسية في مراهقتهم . وإتاحة الفرص لهم للاختلاط في حياة اجتماعية مناسبة لهم . حيث يلتقون بأبناء جيلهم ويكتسبون من صداقتهم لهم الشعور بإنسانيتهم . وذلك لأن مركب النقص يبدأ أولاً نتيجة الأخطاء التربوية

التي كثيراً ما يرتكبها الكبار عن غير قصد ، والعادة أن يأتي مصحوباً
بمركب الذنب الذي يترتب عليه أن يصابوا بالخجل والشعور بالقلّة والتفاهة
فيرتبكوا في تصرفاتهم ويعتقدوا أنهم غير مرغوب فيهم اجتماعياً . . . ويصابوا
في النهاية بالاضطراب النفسي .

» » »

كيف تخلصت « منى » من داء السرقة

جاءتني والدة تلميذة بإحدى المدارس الثانوية تشكو من أن « ابنتها
تكرر رسوبها في السنة الثانية ، وارنكت عددًا من السرقات ، وكان اتجاهها
أن تسرق كتب زميلاتها وأدواتهن ، كما تكرر هروبها من المدرسة » .
كانت التلميذة ابنة لرجل دخله الشهري بسيط لا يكاد يسد
حاجات الأسرة الضرورية ، ويعيش في جهة بعيدة عن المدرسة ، بحيث
تضطر الفتاة « منى » إلى المشي مسافة طويلة لركوب الترام ، والفتاة هي
الإبنة الكبرى ، ولم يرزق والدها من بعدها بغير ابن واحد . ولم يقطع
هذا الرجل من التعليم إلا مرحلة التعليم الابتدائي ، وكانت نفسه تشاق
إلى أن يتم تعليمه ، وازداد شغفه بالتعليم حتى أنه كان يقوم بتعليم زوجته
الأمية ، كما كان يعلم أولاده بنفسه ، ويشرف عليهم إشرافاً شديداً
يتخلله الضرب الشديد والقسوة والإيذاء .

وكان دخل الوالد عندما أنجب ابنته هذه في مستوى أعلى من دخله الحالى بدرجة كبيرة . وكانت الفتاة مدللة بحجاب كل مطالبها .

ذهبت الفتاة بعد إنخفاض دخل الأسرة وزيادة مسؤوليات والدها العائلية إلى المدرسة محرومة من تلبية رغباتها ، غير مدربة على مقاومة نفسها ، يضاف إلى هذا أن انخفاض دخل الوالد كان السبب في حنقه وقسوته على أبنائه .

قضت الفتاة المرحلة الابتدائية والإعدادية في مدرسة قريبة من المنزل ، ثم انتقلت إلى مرحلة التعليم الثانوى وفيها هبط مستواها بالنسبة لغيرها من التلميذات ، وربما كان سبب هذا الهبوط عدم ملاءمة ظروفها المنزلية لأداء واجباتها ، واضطراب حالتها النفسية نتيجة لقسوة معاملة والدها لها

كانت هذه الفتاة متوسطة الذكاء ، وكانت معاملة والدها لها تختلف كل الاختلاف عما يجب نحو شابة في سن المراهقة . فكانت الأم تقسو في معاملتها وتمنعها من الخروج إلا إلى المدرسة . وكانت في بعض الأحيان تقوم بضربها حين تعصى لها أمراً . وازداد توتر العلاقة بين الفتاة والديها . وبالإضافة إلى ذلك كان جو المدرسة خالياً من العمل المشوق ، وليس به نوع من الاتصالات الاجتماعية الصالحة بين الطالبات ، أو بينهن وبين المدرسات ، فلا عطف ولا فهم ، ولا تقدير ولا توجيه ولا نجاح . وازدادت شكوى المدرسة من « منى » لسوء سلوكها وارتكابها السرقة مرات متكررة غير مبالية بأى نوع من العقاب أو التهديد أو الوعيد في المدرسة والمنزل ، مما أدى إلى ضرورة طلب الاستشارة الطبية النفسية لعلاجها .

استمرت «منى» تتردد على لعلاجها عدة أشهر أمكننى من خلال الجلسات النفسية أن أكتشف الدوافع التى كانت كامنة وراء انحراف سلوكها ، وفى نفس الوقت استطعت أن أثبتن بعض المواهب التى كانت تتمتع بها دون أن تعلم . فبدأت فى تقويم سلوكها ، وإعادة الثقة إلى نفسها . وتنمية مواهبها ، وتشجيعها على الانتظام فى الدراسة مما أدى إلى توقفها عن السرقة وتفوقها فى الدراسة ، واقتناعها بأهمية المواظبة على الذهاب إلى المدرسة .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد لجأت إلى توجيه الوالدين إلى الأسس التربوية الصحيحة فى طريقة معاملتها لابنتهما فى المواقف المختلفة . مع إغداق الحب والعطف والتشجيع والفهم فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتها . ومما ساعد على نجاح العلاج تعاون الوالدين فى سبيل تحقيق الشفاء لها - - وقد حرصت على إعطائها بعض الأدوية المهدئة التى يمكن أن تساعد على التحكم فى انفعالاتها وتكيفها مع مجتمعها . المنزل والمدرسة .

التحليل النفسى :

نشأت «منى» فى بدء حياتها فى بيئة ميسورة الحال نسبياً ، بحاج مطالبها دون تأخير . فحين ذهبت إلى المدرسة الثانوية وشعرت بالحرمان بسبب انخفاض دخل الوالد أدى ذلك إلى حرمانها من الكثير مما كانت تتمتع به فى المرحلة السابقة ، وأصبحت غير قادرة على مقاومة رغباتها . وكذلك انخفاض دخل الوالد وزيادة الشكوى منها فى المدرسة لسوء

سلوكها وتكرار حوادث السرقة ، كان السبب في ضيق الوالد بها والقسوة عليها ولا سيما عند ملاحظته إياها في الدراسة .

فإحساس « منى » بالحرمان الشديد من الحب والعطف والحنان ، يضاف إلى ذلك المعاملة التي كانت تلاقىها في المنزل والمدرسة ، كل هذه العوامل دفعتها إلى كراهية الأسرة ، والهروب من المدرسة وعدم الانتظام بها .

ومن الملاحظ أيضاً أن « منى » حين لم تشعر بقيمتها في المنزل وفي المدرسة من الناحية العلمية والاجتماعية ، اندفعت لتسرق ، وربما لجأت إلى السرقة كي تحقق مجموعة رغبات في وقت واحد . فهي تسرق الكتب من زميلاتها انتقاماً للناحية التي كانت تود أن تتفوق فيها وفي الناحية العلمية . وتبيع هذه الكتب لشترى بشئها بعض الملابس المثيرية ، ولتذهب إلى الخيالة مثل زميلاتها اللاتي ينتمين إلى عائلات غنية ، كي تعوض الحرمان الذي تعانيه حالياً ولا تستطيع مقاومته .

الأخطاء التربوية :

وتتلخص هذه الأخطاء فيما يلي :

١ - تدليل الأسرة للفتاة في المرحلة الابتدائية والإعدادية في الوقت الذي كان فيه دخل الوالد متيسراً ، وذلك بإجابة طلباتها وعدم إعطائها الفرصة للاعتماد على نفسها وتحمل بعض الحرمان ، لأن كثيراً من حاجات الطفل ورغباته تتعارض مع الأوضاع والقيود الاجتماعية فيما بعد . ولا بد للطفل أن يتعلم تدريجياً كيف يحد منها بالتنازل أو بالتأجيل

أو بالتعديل كى يعيش وفقاً للواقع . هذه القيود التى تفرض على رغبات الطفل وسلوكه لازمة لتنظيمه ، وهى الدعائم الأساسية فى عملية التربية ، ولكن نجاحها دون أن تنال من صحته النفسية يتوقف إلى حد كبير على حسن تطبيقها من حيث اختيار الوقت المناسب والطريقة الملائمة .

٢ - سوء معاملة الوالد لى والقسوة عليها ولاسيما أثناء قيامه بتعليمها ، أدى إلى عدم الاستماع إلى أى توجيه من ناحية ، وكراهيتها للدراسة والمدرسة مما دفعها إلى الهروب منها وعدم الانتظام بها من ناحية أخرى .

٣ - عدم تقدير الوالدين للانفعالات المختلفة التى كانت تتعرض لها ابنتهما فى هذه المرحلة « المراهقة » التى كانت تمر بها وقتئذ من حيث المعاملة وحرمانها من العطف والتقدير والتوجيه السليم المتفهم لحاجاتهم النفسية .

٤ - عدم محاولة الوالدين نقلها إلى مدرسة قريبة من المنزل ، وذلك لتخفيف المجهود الشاق الذى تبذله للوصول إلى المدرسة ، مما يؤدى إلى اضطرابها نفسياً وجسدياً ، وتفضيلها فى بعض الأحيان عدم الذهاب إليها وتوفير ذلك المجهود المضنى .

٥ - عدم محاولة المدرسة فهم الدوافع النفسية الكامنة وراء اتجاه الفتاة نحو السرقة ، فإن المدرسة لو أعطت هذه التلميزة فرصة النجاح فى أى عمل ذى قيمة لشجرت بالرضا من نفسها ، ولم تتجه إلى السرقة . فلكل تلميذ نواح طيبة يمكن كشفها وإبرازها بحيث ينجح فيها ويشعر بقيمة نفسه أمام إخوانه .

٦ - يضاف إلى ما سبق أن البيئة الأسرية التى عاشت فيها منى .

كانت غير ملائمة لتنشئتها تنشئة نفسية سليمة ، بين والدين غير متفاهمين وغير قادرين على إغداق الحب عليها ، فشعرت بحرمان شديد أدى بها إلى الانحراف .

بذلك يمكننا أن ندرك من هذه الحالة أهمية فهم حاجات الطفل النفسية في كل مرحلة . لأن هذا الفهم يقوم بمهمة وقائية ، فهو يحول دون تحول الانحراف إلى اضطراب .

فالتنشئة النفسية الصحيحة للطفل أصبحت اليوم ضرورة جوهرية . لا سبيل إلى الاستغناء عنها أو التماهل فيها إذا شئنا أن نهض بواجبنا نهوضاً سليماً وكاملاً إزاء الطفل وإزاء الوطن على حد سواء ، أى إذا شئنا أن نعد طفل اليوم لتحمل تبعات الغد مع القدرة على أن ينعم بحياته معاً .

فقدت الحب فأصابها الاضطراب النفسى

كانت في الخامسة عشرة من عمرها . يتيمعة الأبوين ، يعولها خالها وزوجته ، وهذا الخال من صغار التجار . .

وقد جاءته زوجة الخال ، وهى امرأة في الثلاثين من عمرها ، تبدو عليها مظاهر الاتزان والجمال والاحترام . فلم تترك هذه السيدة فى نفسى فكرة قائمة عنها . وشكت لى زوجة الخال من الفتاة فقالت :

«إنها فتاة صحتها الجسمية جيدة ، موفورة العافية ، ومع ذلك

لا تقوم بشيء من أعمال البيت ، وتثير الشغب والإزعاج والفوضى . .
 فهي لا تبدى عرفاناً بالجميل لما يبذله خالها وما أقدم عليه من أجلها
 من تضحيات . . إنها فتاة شديدة العناد ، كثيرة المكر ، لا يوثق بها .
 ولا يعتمد عليها ، يغلب عليها الشرود والسهو ، حتى أنني لا أطمئن على
 طفلى البالغ من العمر ثلاث سنوات وهو معها ، خشية أن ينزل به مكروه .
 وهي غافلة عنه .

وبدراستي للحالة تبين ما يلى :

كانت الفتاة تتمتع بطفولة ناعمة مع الوالدين يحيطانها بالعطف
 والحب والحنان ، والد الفتاة كانت حالته المالية ميسورة نوعاً ، وكان
 يقيم فى إحدى القرى ، إلا أنه كان يدمن الخمر ومريضاً بالسل
 وكانت الفتاة فى حياة والديها موضع رعاية وحب لا حدود لهما .

وفى ذات يوم كانت الفتاة وحدها بالبيت ، وكان والدها فى المرحلة
 الأخيرة من مراحل مرض الدرن ، وطلب منها أن تأتية بكوب ماء . .
 وجاءته بالكوب فتجرعه ، ثم سعل وشرق ، ولم يلبث أن سقط على سريريه
 ميتاً . وصاحت الفتاة مستغيثة ، ولكن أحداً لم يسمع استغاثتها ولم يخف
 لنجدتها . . ومع ذلك لم تجسر على الهرب من البيت حتى لا تتركه
 وحيداً . . واضطرت للبقاء معه تحديق فيه مراعاة وهو ميت ، إلى أن
 حضرت أمها من الخارج . . هذه هى حادثة وفاة أبيها .

ولما مات الوالد فقدت الفتاة الحياة الهادئة المستقرة ، وبدأ الاضطراب
 يسود حياتها وحياة والديها ، وأصبح كل شيء قائماً أسود أمامها . وكانت
 الأم سيئة التصرف . . صفت متروكات زوجها : وكانت امرأة قليلة

الخبرة ، فأدركت بعد التصفية والبيع مباشرة أنها غُبت ، فحاولت أن ترجع في البيع ولكن دون جدوى . وأدت هذه الصفقة الخاسرة إلى تدهور الحالة المالية ، وشعرت الفتاة بالحرمان والمعاناة نتيجة هذه الظروف التي كانت تحيط بها .

وبعد نصف عام تقريباً ، عند عودة الفتاة ذات يوم إلى المنزل وجدت أمها مدلاة من قضبان النافذة والجل يحيط بعنقها ، لقد انتحرت نتيجة إصابتها بالاضطراب النفسى بعد وفاة زوجها . وسوء الظروف من حولها حتى أن الحياة في نظرها أصبحت لا تستحق أن تحياها نتيجة للاكتئاب الذى حل بها أخيراً .

انتقلت الفتاة بعد وفاة والدتها إلى منزل خالها الذى تولى رعايتها بعد وفاة والديها . وكانت زوجته غير راضية عن قدومها ، فكانت تسمى إليها . وتقسو في معاملتها ، ولم ترع الحالة النفسية التي كانت فيها الفتاة نتيجة الصدمات المتتالية التي مرت بها .

كان الخال رجلاً حازماً ، يحكم أهل بيته بدكتاتورية لا تقبل المراجعة . . الكلمة دائماً كلمته . . والويل لمن يناقش حقه في فرض إرادته . لأنه كان يعتقد أنه أقوى وأعقل وأبعد نظراً من جميع الناس . . كرامته الشامخة كالجبل الأشم لا تقبل غلظة أو الرجوع في رأى . . أو أن ينزل إلى مدارك الاعتذار من مجرد مناقشة كلمة أو أمر يصدره أو رغبة يديها .

كان هذا الخال الطاغى المستبد لا يستطيع أن يعرض الفتاة عن الحب والحنان ، فكانت تشعر بالحرمان والألم والمعاناة النفسية لإحساسها

بالوحدة واقتادها والديها .

وكثيراً ما كانت زوجة خال الفتاة تغادر البيت بعد الظهر ، وتترك لها مهمة تنظيفه وحدها . فتنهز الفتاة فرصة هذه المذلة وتمضى إلى حجرة قليلة الضوء وتستلقى فوق الأريكة . . وتطلق العنان لخيالاتها وأحلام يقظتها . . وعندما تستولى عليها هذه الحالة من الشرود ، لا يسعها أن تعى شيئاً آخر مما يجري حولها ، حتى أن زوجة خالها عندما عادت من الخارج ذات مرة ظلت تطرق الباب بكل قوتها نصف ساعة تقريباً دون أن تسمعها الفتاة . . ولما سمعتها أخيراً دخلت السيدة وهي تكاد تنشق من الغبط . . وجعلت ترمى الفتاة بالمكر والخسث ، ورفضت أن تصدق أنها لم تسمعها . وبطبيعة الحال لا يمكن أن تطمئن الفتاة إلى زوجة خالها . ولا أن تفضى إليها بأحلام يقظتها . . كانت تعتذر للسيدة كلما شردت بأعذار وهمية غير معتدلة تريد من إقناع زوجة الخال بأن الفتاة خبيثة ماكرة ناكرة للجميل ، عنيدة .

وحرصت الفتاة أن توضح لى أن الأفكار التى تنهال عليها فى أحلام يقظتها ، ولا تريد أن تتخلص منها ليست على الدوام أفكاراً محزنة أو مخيفة ، بل فى كثير من الأحيان يكون لها طابع سار ، وذلك عندما تحملها الذكريات إلى أيام طفولتها السعيدة .

وهذه الذكريات الطفلية واضحة كل الوضوح ، ويمكن أن تسيطر على ذهنها ، فى أى وقت أثناء قيامها بعمل ، أو أثناء مداعبتها لابن خالها . . بل وربما أثناء سيرها فى الشارع . وأكثر ما يكون ذلك وهى سائرة فى الطريق صباحاً أو وهى نائمة بالليل . فقد رأت ذات ليلة حلماً من الأحلام

المتعلقة بماضيها في بيت أبيها .. وهو كثير الحدوث في معظم الليالي .. وكانت هذه الحالة من الشroud وأحلام اليقظة لا تستولى عليها أثناء وجودها في المدرسة .

وهي تكره أعمال البيت .. بل وتكره مداعبة ابن خالها الطفل ، وتشعر عند مداعبته بضيق شديد لأن زوجة خالها كانت تزجرها دائماً عند أول بادرة تدمر من ابنها .

ومهما حدث للفتاة من متاعب ، فإنها لا تشكو حالها إلى زوجة خالها . لأن نتيجة الشكوى دائماً هي غضب زوجة الخال التي تصب عليها الشتائم والنعوت القبيحة . مثل الغباء والعناد والحقارة ..

وقد حصلت على تقرير من المدرسة .. ومنه ظهر بوضوح أن مملك الفتاة في المدرسة يختلف تماماً عن مسلكها في البيت . فمعلمة الفصل تصفها في التقرير بصفات النشاط والذكاء واليقظة وحسن الإصغاء ، والاعتماد على النفس والأمانة في العمل . علاقتها بزميلاتها فيها المرح والتهايب . وعندما عرف منها أنها تعاني من سوء المعاملة في بيت خالها نقلن ذلك إلى المعلمة ، وعلى هذا الأساس أرسلت المدرسة التقرير موضحة فيه كل ما سبق ذكره .

وقد تبين أيضاً اعتراف الفتاة نفسها بطريقة غير مباشرة بأن سلوكها في البيت غير اجتماعي ، فهي دائماً تبدو لمن لا يعرف حقيقتها شاردة مشاغبة عنيدة كسولا .. في حين أن سلوكها في المدرسة لا غبار عليه إطلاقاً .

التحليل النفسى :

يلاحظ فى الحالة السابقة أن الفتاة كان انحرافها الكامن لا يظهر إلا فى البيت ، أما فى المدرسة فلا . . لأن الصدمة التى حدثت للفتاة بموت أبويها لا تظهر أعراضها إلا فى إطار معين هو البيت . .
وبإعادة النظر فى حالتها تبين أن الذكريات المؤلمة التى تراوحتها تسبب لها أحياناً عذاباً شديداً . . أما أحلام اليقظة واسترجاع الذكريات السارة فكانت تشعرها بلذة عظيمة .

وأحلام اليقظة شئ مألوف . . وكلنا نجربه فى بعض الأوقات وكل واحد منا إذا اشتد سخطه على ظروفه الواقعية يهرب منها إلى عالم الأحلام ، وهو يعبر عنه فى التحليل النفسى بأننا نسحب جانباً من طاقتنا الحيوية من عالم الواقع فيزيد ذلك من قوة الأوهام والتخيلات ، ويجسم أهميتها . . وهى عملية طبيعية لا غبار عليها بشرط أن تظل علاقتنا بالعالم الخارجى من حولنا مستقرة .

أما إذا كان الجانب المسحوب من طاقتنا الحيوية المخصصة بعالم الواقع ضخماً للغاية فلا بد فى هذه الحالة من أن يختل ميزان علاقتنا بالواقع ، ويصبح تكيفنا معه أمراً شاقاً عن المعتاد . .

والمفروض أن الشخص الذى يستطيع أن يطرد التخيلات اللذيذة التى تستولى على ذهنه متى دعاه نداء الواجب للقيام بأعماله العادية ، يطوى أحلام اليقظة جانباً ويتركها إلى وقت ساعة التزهة أى عندما يأوى إلى فراشه لينام .

إلا أن من الناس من يلجأ إلى أحلام اليقظة مكرهاً . لأن الحياة الواقعية صارت مثار آلام شديدة له . . يعجز عن احتياها . . ومتى هرب إلى أحلام اليقظة فقد لا يتيسر له التخلص من سلطانها ويفقد بالتالى كل اهتمام بالحياة الواقعية العادية ، بعد أن تجمع اهتمامه كله فى عالم الأحلام والأوهام . . وهذا ما يعتبر « حالة مرضية » كما هو الشأن فى الحالة التى ذكرتها . . فالفتاة لم تستطع التغلب على الصدمة ، فهى لم تستطع أن تنسى تمام النسيان الكوارث المؤلمة التى نزلت بها . . ولذا كانت هذه الكوارث تبرز إلى مستوى القدر على شكل ذكريات أليمة مثيرة للانقباض والفرع . . وفى الوقت نفسه جاء تغيير البيت بعامل جديد . إذ أبعدت عن الجو المألوف لها العزيز عليها . . فكانت تحاول تعويض هذا الحرمان عن طريق أحلام اليقظة .

وكانت الفتاة كلما شعرت بالارتياح فى عالم الواقع وأملها أن ترتبط بصلات الصداقة الودية لم تجد فى نفسها حاجة إلى الأوهام التى تبعدها عن ذلك الواقع اللطيف . وهذا تماماً هو حالها فى المدرسة . أما فى البيت فلا تستطيع أن تشبع رغبتها فى الصداقة والطمأنينة والارتياح ، فضلاً عن أنها تشعر فى بيت خالها بأنها عالة على الرجل وزوجته : وأنها يتحملانها على مضض . . وهى التى كانت معززة مكرمه محبوبة فى بيت أبيها . . ولا تطيق أن تتصور نفسها شبه خادم ، تقوم برعاية الطفل الصغير وتنظف البيت ، وإلا رمت بالجحود من زوجة خال لا تفهم همومها ، ولا تدرك آلامها . ولا تعطف عليها . . وفى هذا الإطار تهرب من الواقع فتشبع كل رغباتها المكتومة فى عالم الأوهام .

عوامل الاضطراب :

التدليل الزائد الذى كانت قد افقدته بدأ ظهوره منذ طفولتها .
إذ كانت كل رغباتها مجابة مهما كانت ، وعدم إعطائها الفرص
للاعتدال على نفسها وتحمل بعض الحرمان .

الصدمات النفسية التى تعرضت لها فى طفولتها عند وفاة والدها
العزیز عليها وهى بجانبه ، ثم المعاناة المادية والحرمان بعد وفاة الوالد وسوء
تصرف الوالدة ، ثم وفاة والدتها بصورة أذهلتها وغرست الرعب والخوف
داخلها .

سوء معاملة زوجة الخال وعدم تقديرها لما كانت تعانيه نفسياً من
الحرمان ، وتماديها فى القسوة عليها وإدخال الإحساس فى نفسها بأنها
عالة عليهم ، وأنهم يتحملونها على مضض . . وهى التى كانت معززة
مكرمة محبوبة فى بيت أبيها ، ومعاملتها كخادم تقوم بتنظيف البيت
ورعاية الصغير .

العوامل السابقة أدت إلى هروبها من عالم الواقع إلى أحلام اليقظة . .
فكانت على وشك الإصابة بعلّة نفسية خطيرة لولا المبادرة بالعلاج النفسى .
وكان من المقومات الهامة التى لجأت إليها قبل البدء فى علاجها نفسياً
أن أقنع زوجة الخال بضرورة حسن التفاهم مع الفتاة ، وتقدير حالتها
المرضية ، لتغير اتجاهها نحوها ، وحتى يمكنها أن تنال حب الفتاة وطاعتها
ومساعدتها فى أعمال المنزل ورعاية طفلها . .

واستمر علاج الفتاة ، وفى نفس الوقت وجهت زوجة الخال إلى

كيفية معاملة الفتاة ، وكانت في أثناء الجلسات النفسية تتحدث عن فجائعها بإفاسة وانفعال . . فأدى ذلك إلى تخلصها تدريجياً من آثارها الباقية . وفي الوقت نفسه ، مهدت للفتاة بواسطة إحدى زميلاتهما عقد صداقات مع بنات من سنّها بحيث تشعر معهن بالرضا والارتياح والسرور فلا تلجأ إلى أحلام اليقظة . . وبالفعل لم يمر عام واحد حتى ظهر عليها تطور حسن جعلنا نطمئن عليها .

وكانت زوجة الحال حين تلاحظ تغير سلوك الفتاة إلى الأحسن وتخلصها من مظاهر الانحراف في السلوك الذي كانت تشكو منه يزداد تعاونها بحسن معاملتها للفتاة . ومحاولة فهم حاجاتها النفسية وتلبيتها . مما ساعد على نجاح العلاج النفسي .

مما سبق ، ندرك أن هذه الفتاة لم تكن منحرفة السلوك . وأن الصدمات النفسية التي تعرضت لها في مختلف الظروف عرضتها للاضطراب النفسي . ولما عاد إليها الحب والعطف اللذان افتقدتهما بدأ ظهور الاتزان النفسي وزالت أعراض الاضطراب .

عادت إليها الحياة بعد فقدانها

بعض الناس عاجزون عن هضم التجارب المؤلمة التي تحدث لهم ، إذا حدثت لهم بصورة مفاجئة وعنيفة ، بحيث يكون التكيف معها شيئاً فوق طاقتهم .

وعندما يكون للتجربة الانفعالية هذا التأثير الشديد الوطأة نسميها صدمة نفسية ، وهذه الصدمة قد تتمخض أحياناً في ظروف معينة عن عصاب أو مرض نفسى شامل .

وفى إلى نوضح قصة تأثير الصدمة النفسية على سلوك الفرد :
كان في السابعة عشرة من عمره . . ماتت أمه فذهب ليعيش مع شقيقته وزوجها ، فأهملته أخته وشأنه ولم تهتم بأموره الشخصية والنفسية لانشغالها بمنزلها وأولادها وعملها . فصار يقضى معظم وقته في الأزقة والطرقات حتى صار قفياً منحرفاً . .

وبعض الشكوى من انحرافه تتمثل في حب التشرد وعدم الرغبة في الالتحاق بأي نوع من الدراسة أو أى عمل ، مما أدى في النهاية إلى تنبه أخته إلى انحراف سلوكه ، وجاءت به للعيادة للعلاج .
كان « ماجد » برغم وسامته ومظهره الحسن خجولاً وبطئاً الحركات متحفظاً ، مما يدل على أنه شديد السلبية دمث الخلق ولذلك فإن انحرافه ليس من النوع الذى يخشى منه على الناس وأنه من السهل إصلاحه .
وبدراسة الحالة تبين ما يلي :

كان يعيش مع والدين متحايين . . كان هو الطفل الثانى ، حيث إنه كان له أخت تكبره بخمسة عشر عاماً ، إذ أنه جاء بعد أن مات له أربعة أخوة ذكوراً وإناثاً لم يرهم . كان يسكن مع والديه وأخته في شقة مكونة من غرفتين ، حيث إن حالة الأسرة المادية غير متيسرة . وكان الوالد يعمل عاملاً في مستشفى ، وكان يتقاضى أجراً بسيطاً يكاد يغطى مصاريف الأسرة الضرورية . .

كان ماجد قد اعتاد أن ينام في السرير بين والديه وأخته كانت تنام على أريكة مقابلة . .

تزوجت أخته وهو في الثانية عشرة من عمره ، ومن ذلك الوقت فقد ظل ينام بين والديه حسب رغبته ، ولم يمانع الوالدان في ذلك حيث إنهما اعتادا أن يلييا كل طلباته مهما كانت صعبة التحقيق .

وفجأة مرض الوالد وتوفي في المستشفى ، وكانت صدمة عنيفة على ماجد وبدأ يشعر بالمسؤولية ، فتألم لحال أمه كثيراً لإحساسه بأنها وحيدة فأخذ يرعى شئونها ويخدمها ليحل محل والده . . كان ماجد متعلقاً بأمه تعلقاً شديداً وكان يحاول دائماً أن يساعدها في كل ما تريد كي تعيش وتظل معه ترعاه وتؤنسه ، ولكن الأقدار لم تتركه على هذا الحال ، وبعد مرور ثلاث سنوات من وفاة والده توفيت الوالدة في حادث مروع ، إذ كانت تعمل في مصنع (فرمتها آلة المصنع فرماً) وجاءه إلى البيت من استدعاه وأخبره بأن أمه مغوى عليها في المصنع . فذهب إلى هناك مع أخته فأخبرتهما الإدارة بما حدث ، فسقط ماجد فاقد الوعي ، وبعدها ذهب مع أخته إلى البيت حيث ظلت ساهرة عليه طول الليل ، لأن حالته كانت سيئة جداً من فرط الرعب . . ولم تسمح له بتشيع الجنازة ، وحاول أن يبكي فامتعت عليه الدموع ، فأخذ يتشاغل بلعبه التي كانت أمه تتعجب دائماً من براعته فيما يفعله بها .

تم انتقال ماجد إلى بيت أخته بعد أن باع أثاث منزل أمه وتقاسما ثمنه ، وأبت أخته أن تتقاضى منه مقابلاً لإقامته عندها . ثم عمل صبي ميكانيكي شهرين ولكن لم يعجبه العمل فتركه .

كان دائماً يتذكر أمه ، وصورتها لم تفارق حياته وحادث الموت البشع يؤرقه ليلاً حتى إنه كان يصرخ أحياناً أثناء نومه ويقوم في حالة فرع شديد . .

كان ماجد أثناء العلاج بالجلسات النفسية حين يذكر حادث وفاة أمه يجهد بالبكاء الشديد وينتحب بعنف . .

ثم التحق ماجد بعمل آخر في فندق ، ولكن كان عمله ذبح الحيوانات ، فرفض هذه المهنة وتركها إلى التجارة ولكنه كان لا يحبها أيضاً . . ولم يرض معلمه عن كسله فطرده . . والتحق بعمل آخر ففشل فيه أيضاً . . وكان لا يدري لذلك سبباً ، على الرغم من أنه كان في كل مرة يفصل فيها عن العمل يتألم تألماً شديداً . .

وصار يقضى وقته هائماً في الطرقات متسكماً بدون هدف ولا أمل ولا رجاء . . وكان زوج أخته وولى أمره لا يكف عن مطالبة بالالتحاق بعمل وتعلم مهنة ، وكان يصاحب ذلك إهانة وسب وسوء معاملة ، وبث فيه الإحساس بأنه يعيش عائلة عليهما كانت هذه المعاملة تجعله يقضى النهار في الطرقات ، ثم يعود إلى البيت في المساء وأحياناً كان يقضى الليل هائماً ينام في أى ركن من أركان الشارع حتى أنه كان يقبض عليه بتهمة التشرد . . وأخيراً جاءت به أخته للمشورة الطبية النفسية والعلاج . . .

لم يكن له أصدقاء إطلاقاً ، بل إنه لم يكون معي أيضاً صلة وثيقة على الرغم من طول مدة العلاج وكثرة اللقاء في الجلسات النفسية ، وإن كان قد صار أكثر تبسطاً في الحديث . . وتدرجياً زال انقباضه ، وأصبح

أقل نسياناً وزاد اهتمامه والرغبة في الالتحاق بالعمل ، فالتحق بعمل كتابي في مدرسة كبيرة ، وانتظم في هذا العمل ولم يظهر عليه بعدها أعراض الانحراف . . فقد زال الانحراف نهائياً بانتظامه في العلاج النفسي وبعض الأدوية المهدئة ، يضاف إلى ذلك توجيه أخته وزوجها عن كيفية معاملته حتى يستقيم أمره ويحقق العلاج النفسي النتيجة المرجوة ، فكانت استجابتهما لذلك من العوامل الهامة التي ساعدت على علاج ماجد واختفاء الانحراف في سلوكه .

التحليل النفسي للحالة :

إن حالة ماجد توضح تأثير الصدمة النفسية عليه مما أدى إلى ظهور الأعراض النفسية في صورة رفضه للعمل والتشرد اللذين يعتبران مظهرين للانحراف . ويلاحظ أن هذه الأعراض لم تظهر عليه إلا بعد وفاة الأم بهذه الطريقة البشعة . . وبعد إقامته مع أخته وتعرضه لسوء المعاملة من زوجها ازدادت حالته تفاقمًا بحيث أدى الأمر لضرورة اللجوء للطب وطلب المشورة والعلاج الطبي والنفسي . ومن المشاهد أيضاً أنه فوجئ بفجعية أمه ، وأن المفاجأة كانت مؤلمة فوق قدرته على احتمالها حتى إنه فقد الوعي وأغمى عليه ثم قضى الليل في فرع سهرت أخته عليه طول الليل . . وانصرف إلى إحدى لعبه في الوقت الذي كانت فيه أمه توارى التراب . .

وهذا كله ليس عادياً على الإطلاق ، أن يصدر من قتي كبير عمره يومئذ ١٤ سنة مع أنه لم يشاهد أمه في تلك الحالة . . بل سمع فقط ما

حدث من أفواه رجال المصنع ونسائه وهو نفسه عبر عن هذه الصدمة بقوله : « لم أستطع الانقطاع عن التفكير فيها في أية لحظة أو عن تخيل منظرها الفظيع بعد هذا الذى حدث لها »

ثم حدث أن كبت كل ماله صلة بهذا الحادث المؤلم ، ومن هذا الكبت مقاومته ضد استعادته . . لأن تلك الاستعادة تسبب له ألماً محضاً . . . فتجت كل الالتواءات في سلوكه ، وتفاقت الانحرافات يوماً بعد يوم . . . يجب ألا نغالى في تجسيم أهمية التجربة المسببة للصدمة . . فنفس التجربة التى تحدث الصدمة عند قتي معين فيصير عصبياً (مريضاً نفسياً) لا يكون لها أثر تقريباً عند قتي آخر . . ومهما يكن من شئ فالتشرد عند ماجد حل محل المرض النفسى ، وبهذا التشرد كان ينجو بنفسه من مرض الاكتاب . . . وأياً كان الأمر فإن موت الأم بهذه الصورة المؤلمة ما كان ليحدث هذا الأثر لو لم يكن الفتى متعلقاً جداً بأمه ومرتبطةً بها تمام الارتباط . . . يضاف إلى ذلك أنه كان مرتبطاً بوالديه بنام في فراشهما . وبعد أن أخلت أخته الأريكة التى كانت تنام عليها وذهبت إلى بيت زوجها لم يحل محلها على الأريكة بل ظل بنام بين أبويه مع أن عمره يومئذ كان ١٢ سنة . وبعد وفاة أبيه ظل بنام مع أمه ، ويعنى بها بدلا من أبيه ، كل هذا ينبئ بأن ماجداً كان متمسكاً بشخصية أبيه بصورة غير عادية ولذا كانت صلته بأمه غير عادية . . كان كأبيه تماماً . . وليس معنى هذا طبعاً علاقة شائنة . . بل المراد منها علاقة أعمق من علاقة الأمومة العادية ، ولذا كان وقع موتها عليه يعنى أكثر من مجرد فقدان الأم . .

وإني لا أمانع من أن اتجه الطفل بمحبه نحو أفراد أسرته ولا سيما

الوالدين أمر ضرورى للنمو الانفعالى السليم . . ولكن من الطبيعى أيضاً أن تقل هذه العواطف العنيفة قرب المراهقة ويقل الارتباط بالوالدين وأفراد الأسرة قبل هذه المرحلة ، لأن مرحلة المراهقة هى وقت انتقال الحب من داخل الأسرة إلى خارج محيطها ومن الأم والأب والأخوة إلى أفراد من الجنس الآخر غرباء عن هذا المحيط القريب من الذات .
ولذا نرى أنه فى حالة استمرار التعلق بأفراد الأسرة فى النمو وعدم توقف هذا النمو قبل المراهقة يتعرض الفتى المراهق بما يسمى « تثبيتاً » على موضوعات حبه . ولا يستطيع أن يتحول بحبه من أمه أو أبيه إلى شخص غريب عن الأسرة . . المفروض أنه الزوجة ، وهذا التثبيت من الأصل الكامن فى بعض أنواع الأمراض النفسية . وتكفى الظروف والمناسبات لجعله مرضاً نفسياً ظاهراً أو انحرافاً ساخراً ، وفى حالة ماجد كانت « الصدمة النفسية » بموت الأم فجأة هى هذه المناسبة السيئة .

الأخطاء التربوية فى هذه الحالة ،

١ - استجابة الوالدين لطلبات ماجد مهما كان تحقيقها صعباً ، ومن ذلك موافقتهم على نومه فى نفس فراشهما فى صورة مستمرة ، أدى ذلك إلى عدم إعطائه الفرصة للاعتماد على النفس وتحمل بعض الحرمان . لأن كثيراً من رغبات الطفل تتعارض مع قيود المجتمع ، ولا بد للطفل أن يتعلم كيف يحد منها بالتنازل أو بالتأجيل أو بالتعديل ، فيعيش وفقاً للواقع ، فهذه القيود لازمة لتنظيم حياته .

٢ - نوم ماجد بين والديه منذ طفولته واستمرار هذا الوضع حتى بعد

زواج أخته وخلو الأريكة التي كانت تنام عليها ، فالطفل في نومه لديه القدرة على الإحساس بحقيقة ما يدور حوله ، والعلاقات الجنسية تبدو لذهنه الغرير في تلك المرحلة نوعاً من التهجم أو الاعتداء الصارخ ، الأمر الذي لا يوقظ الغرائز قبل أوانها فقط ، بل هو أيضاً يطبع العلاقات الجنسية في نظر الصغير بطابع العنف والإجرام . وهذا أدى إلى إحساس الطفل ماجد نحو أمه بأكثر من إحساس الأمومة وحزنه الشديد عليها عند سماعه خبر وفاتها ، مما أدى إلى إصابته بالصدمة النفسية ، وبضاض إلى هذا أن الانحراف الكامن الذي ولد في نفسه نتيجة هذا الوضع الخاطيء بنومه بين والديه أصبح انحرافاً سافراً حين سمحت الظروف بذلك بعد وفاة أمه .

٣ - عدم اهتمام أخته بشئونه بعد وفاة أمه بانشغالها بأولادها وشئونها أفقد ماجد عطف وحب أمه بعد وفاتها ، ولم يعوض عنه ولم يجد له بديلاً ، فشعر بالوحدة التي ظهرت آثارها بوضوح في مرحلة المراهقة فأصابه الإحساس بالقلق وعدم الاستقرار لحرمانه من حب أمه ، لأن هذا الحب هو عماد الحياة الإنسانية ، ومن الضروري أن يتناول الإنسان منه جرعات مشبعة من بداية الحياة ، فإن الحرمان من الحب كثيراً ما يلوث النفس بالقسوة الحيوانية ، ويدفع المحروم منه إلى الانحراف في السلوك .

٤ - سوء معاملة ولي أمره (زوج أخته) واستمرار قذفه بالسب الموجه بالنفس لعدم توفيقه في أي عمل وبث الإحساس في نفسه بأنه يعيش عائلة عليهم . كان هذا التأديب أكثر من التأديب البدني ، بل كان كالطعنات الجارحة : فأدى ذلك إلى هروبه وقضاء الليل خارج المنزل مما ساعد على

تشرده وانحراف سلوكه .

مما سبق نرى أن التجربة الانفعالية الشديدة الوطأة تحدث أحياناً ما يسمى بالصدمة النفسية ، وأن الصدمة النفسية تسبب اضطراباً شديداً في العمليات النفسية . . هذا الاضطراب قد يؤدي إلى انحراف كامن تحوله المناسبات والظروف إلى انحراف سافر . . والطبيب النفسى هو الذى يستطيع أن يتعمق في نفس مريضه وينقب في لفائف العقل الباطن كى يستطيع الوصول إلى الجذور المترسبة فيه والتي كانت الأساس في وجود الانحراف الكامن ، فيقوم بعلاجها . . وليس فقط القضاء على المظاهر السافرة فهي أشبه بانتزاع الحشائش الضارة لا مجرد اجتثاثها من فوق سطح الأرض ، لأنها في هذه الحالة ستعود للازدهار .

حرمانها من الحب . . أدى إلى عصبيتها

كانت في سن العاشرة الابنة الوحيدة لوالديها . . وقد حضرت مع والدتها لعلاجها من عدة أمراض منها : تأخرها الدراسي واستمرارها في مص أصابعها وقضم أظافرها . يضاف إلى ذلك أنها عصبية تصرخ وتبكي لأتفه الأسباب وإذا غضبت فإنها تنور وتضرب نفسها . وتخط رأسها في الحائط وترفس برجليها . . وهى تغضب في أغلب المناسبات . . ونصفها والدتها بأنها مهملّة في ملابسها وغير منظمّة في قضاء حاجاتها المختلفة ، إذ قلما تضع شيئاً في موضعه ، لا تميل إلى استذكار دروسها بمفردها . . تميل

إلى الرسم وقص الورق ، وتقضى فيها كل أوقات فراغها ، ومع ذلك حسب تقدير والدتها فإنها لم ترسم مع كل هذا رسماً مقبولا قط . .

وبدراسة الحالة تبين أن الفتاة كانت تعيش في حياة أسرية مضطربة . كانت الأم عصبية المزاج ، تصاب أحياناً بتشنجات هستيرية . سريعة الانفعال لأسفه الأسباب ، كثيرة الشكوى من أمراض وهمية تؤدي إلى التردد على الأطباء دون جدوى . وكانت شديدة قاسية في أحيان كثيرة مع الفتاة ، وحين تخطئ في أى عمل أو سلوك تقوم الأم بضربها ضرباً مبرحاً . وقد ضربتها ضرباً قاسياً عندما اطلعت ذات مرة على نتيجة عملها بالمدرسة ، مما أدى بها إلى كراهيتها للمدرسة والدراسة ، فكانت أحياناً ترفض الذهاب إليها أو تلجأ إلى الهرب منها ، مما أدى إلى تأخيرها الدراسي عن زملائها . وبإجراء اختبارات الذكاء عليها اتضح أن ذكاءها في مستوى ذكاء طفل متوسط عمره إحدى عشرة سنة . ومعنى ذلك أن لديها من المقدرة العقلية الطبيعية ما لا يبرر تخلفها . بل بالعكس : كان يُنتظر منها تفوق باهر .

أما الوالد فكان ضعيفاً ليناً لا يهتم بشكوى الوالدة من ابنتها ، ويخاف أن يجرح إحساسها ، ويصل خوفه إلى أن يتردد ويتلعثم في أثناء حديثه معها . ومع ذلك فقد كان يتدخل في نشاطها . . كانت الفتاة مغرمة بتأليف القصص القصيرة ، فكان الوالد يرى أن هذا لا يتمشى مع المناهج التقليدية للمدرسة ، وفيه مضیعة للوقت ، فيمنعها بكل وسيلة من ممارسة هوايتها ، حتى أنه كان أحياناً يمزق ما تنتجه من كتابات أمامها حتى لا تعيد تكرار ذلك ثانية .

يضاف إلى ذلك قلق الجميع على صحة الفتاة ، إذ أنها ضعيفة من صغرها ، ولعل من أسباب القلق عليها أن أخاها الذى يكبرها بأربع سنوات مات وهو فى سن السادسة .

وقد أجمع جميع مدرسيها على أنها مشتتة الانتباه . شاردة الذهن . وقد وصفتها إحدى المدرسات بأنها لا تستقر فى الفصل فهى تلتفت مرة ذات اليمين وأخرى ذات اليسار . تتطلع إلى هذه وإلى تلك من زميلاتها . وتعبث أثناء ذلك فيما أمامها من الأدوات . فإذا لم تجد أمامها شيئاً تعبث به أخذت شيئاً من درجها أو درج جارتها لهذا الغرض . وكانت دائماً تلجأ إلى مص أصابعها وأظافرها وتتمادى فى ذلك إذا لم تنبه إلى ذلك . وهى قليلة الصبر على مواصلة عملها ولا تميل إلى إتقانه . وحركاتها عصبية . وقد ضربها والدها مرة عندما كثرت الشكوى منها . . وبعد أن ضربها تولاه الندم الظاهر ، ووصلت الحالة بالوالد أخيراً إلى أنه لا يمكنه ضربها إطلاقاً . ولكنه مع ذلك يوصى المدرسة دائماً بوجوب ضربها بشدة . وهناك ظاهرة أخرى فى معاملة هذه الفتاة ، نفرد لها حادثة معينة تبين دلالتها ، وخلاصتها أنها قد ادخرت من نقودها مبلغاً من المال فاقترضه منها والدها ليستعين به فى سفره إلى جهة ما على أن يرده لها بعد عودته . ولكنه لم يرده إليها ، وقد مضت عليه أربع سنوات . . وقد ظن الوالد أن الحادث تافه ، وأن على الطفلة أن تعلم أن كل ما يملكه الوالد فهو لها . . ولكن المهم عند الطفلة فى الواقع هو شعورها بالملكية وإشباع هذا الشعور حياً . . ولروح العدالة المتعلقة بحق الملكية أهمية كبرى فى إشباع الحاجة إلى الأمن .

التحليل النفسى :

هذه حالة طفلة فقدت السلطة الضابطة الحازمة فى المنزل . السلطة المختلطة بالعطف والحب والحنان . . وفقدت الشعور بالأمن لشدة ما يحيط بها من القلق ، نتيجة سوء معاملتها بالمنزل من والديها ، وحرمانها من ممارسة هوايتها التى تعتبر وسيلة للتخفيف عما كانت تعانيه من توتر نفسى داخلى . . ويضاف إلى ذلك ما كانت تلاقيه من قسوة وضرب من المدرسة مما أدى إلى كراهيتها للمدرسة وعدم رغبتها فى المذاكرة وهربها إلى ممارسة هواية الرسم وتأليف القصص . وأخيراً كان ينقصها كثير من التمتع بالحرية . إذ كان والداها يتدخلان فى كل صغيرة وكبيرة من شئونها ، وكانا ينزلان بها فى بعض الأحيان أشد ألوان العقاب إذا خالفت لهما أمراً ، أو لم تحصل على درجات مرضية فى الدراسة .

وفيما يلى يمكن تلخيص أهم العوامل التى أدت إلى اضطرابها النفسى وعدم استقرارها :

١ - عصبية الأم الشديدة وقسوتها فى معاملة الطفلة دون مراعاة لأى اعتبار آخر .

٢ - عدم إتاحة الفرصة للطفلة للاعتماد على نفسها حتى فى البسيط من أمورها الخاصة ، وبهذا أصبحت الفتاة غير قادرة على الاستقلال فى خدمة نفسها ، شاعرة بالعجز .

٣ - المعاملة المنزلية المتغيرة من جهة الوالدين ، وعدم تقديرهما لحاجتها النفسية . . فالوالدة شديدة قاسية ، كثيرة النقد للفتاة ، والوالد

ضعيف لين لا يهتم بشكوى الوالدة منها .

٤ - شعور الفتاة بالشقاء في المنزل والمدرسة أدى بها إلى هروبها أحياناً من المدرسة ، وكراهيتها للدراسة مما انتهى إلى تأخيرها الدراسي .

٥ - حرمان الطفلة من ممارسة هوايتها من رسم وتأليف قصص . . كان من أسباب إحساسها بالقلق وعدم الاستقرار .

٦ - قلق الطفلة على نفسها وشعورها بالنقص لاهتمامهم بها من الناحية الصحية ، وقد أدى ذلك إلى ظهور العصبية الزائدة وعدم الاستقرار النفسي . .

كل هذه العوامل خلقت للطفلة جوّاً تشعر فيه بالتماسة والشقاء . إن الطفل في حاجة إلى الحرية واللعب والحركة . وإلى السلطة الحازمة التي لا تعرف التردد أو الضعف . كما أنه في حاجة إلى العطف والحب . وأخيراً فإنه محتاج إلى النجاح والتقدير لمهاراته وكفاياته بأنواعها المتعددة . وقد استمر علاجى لهذه الفتاة بتوجيه الوالدين إلى كيفية معاملة الطفلة حتى تهدأ وتستقر نفسيّتها وتعاود دراستها بصورة مرضية ، وكذلك العمل على خلق جوّ أسرى هادئ يحيط بالطفلة في المنزل ، تكون فيه المعاملة ثابتة يتوافر فيها العطف والحزم والعدالة والحرية وحسن التوجيه . ويضاف إلى كل ذلك أنى عاجلت الناحية الصحية فزال إحساس الطفلة بالنقص الذى كانت تشعر به .

وأخيراً شفيت الفتاة من الأمراض السابقة ، وعادت إلى استقرارها النفسي . وانتظمت في دراستها حتى أنها أصبحت من المتفوقات في الدراسة وأصبح الوالدان سعيدين لاطمئنانهما على مستقبل ابنتهما .

فعلى كل أم ، لكى تحمى طفلها من الاضطراب النفسى والسلوك المنحرف والتأخر الدراسى أن تمنحه الحب الواعى المستير . . هذا النوع من الحب الذى يدرك ما يحول بفكر الطفل وما يصطدم فى شعوره وما يحرك سلوكه . . ذلك الحب الذى يعرف حاجات الطفولة فيلبها ويدرك ما لدى الطفل من قدرات وإمكانات فيتعهدا بالرعاية ويتيح لها التفتح فى جو ملائم يسوده الاستقرار والهدوء . .

تعثر طفل موهوب

جاءت إلى عيادتي امرأة فى الخامسة والثلاثين من العمر أنيقة على درجة متوسطة من الجمال ، وجلست أمامى وكان يبدو عليها الاكتئاب والقلق والمعاناة ، مضطربة ، وبادرتنى بقولها : « جئت إليك يا دكتورة كى تساعدنى فى علاج ابنى الذى بلغ السابعة من العمر وهو غير متجاوب فى دراسته ، يهرب من المدرسة ، عنيد ، غير مطيع ، يميل إلى المشاكسة وإيذاء الآخرين ، لا يستمع إلى أى توجيه . لقد ضقت به ذرعاً ، حتى إن والده يقوم بضربه أحياناً ضرباً مبرحاً ولكن دون جدوى » .

فقلت لها : « أرجو أن تذكرى لى تاريخ حياة طفلك منذ الحمل به حتى وقتنا هذا ، مع ذكر الأحداث والظروف التى مر بها خلال هذه الفترة بالتفصيل » .

فقلت : « إنه الطفل الثانى فى الترتيب بالنسبة لإخوته ، وقد سعدنا

لقدومه إلى أبعد حد حيث إننا كنا مشوقين إلى ولادة ابن لنا ، لأن الطفل الأول كان بنتاً . كانت صحتي الجسمية والنفسية أثناء الحمل جيدة ، وولادته سهلة غير متعثرة ، وكانت طفولته طبيعية من ناحية النمو في المشي والكلام . إلخ . حتى إنه في بعض الأحيان كان يبدو عليه ذكاء أكبر من سنه ، إلا أن حالته الصحية كانت من الدقة بحيث تحتاج إلى ملاحظة دائمة وعناية خاصة . فكان يلتق هذه العناية أثناء السنوات الأولى التي قضاها في البيت مع أخته التي تكبره بعام واحد .

ولما بلغ الرابعة من العمر ألحقناه بالفرقة الأولى بقسم الروضة فأظهر تقدماً مطرداً ، وفي نهاية العام نقل إلى الفرقة الثانية ، وكان خلال هذه الفترة يظهر شغفاً قوياً بالمدرسة ، وإقبالاً كبيراً مما أسعدنا ذلك كثيراً وشكرنا الله لتوفيقنا في هذه الناحية ، وأدخل على أنفسنا الكثير من الاطمئنان - ولكن إعجابنا بذكائه في هذه السنة جعلنا نظن أنه يفيد ابننا إذا استغل ذكائه في توفير السنة الثانية من سنى الروضة وإعداداه إلى السنة الأولى الابتدائية مباشرة . فجاءت نتيجة الامتحان على ما نرغب ونشئ .

ودخل الطفل الفرقة الأولى من المدرسة الابتدائية . فكنا نتحدث فخورين بتفوق ابننا . وكنا نشعر بالفخر حين نسمع الناس يذكرون ابننا معجبين بنشاطه وذكائه . ولكن ماذا كان الثمن ؟ .

لم يمض شهر واحد من العام الدراسي حتى مرض الطفل مما أدى إلى ملازمته الفراش ، ثم مضى شهر إلى الآخر والطفل ينتقل من ضعف إلى ضعف ، حتى ضاع عليه العام الدراسي الذي أردنا أن نقتصده من حساب

سنى الدراسة . وليس هذا كل شيء . تأخرت حالة الطفل الصحية وكثر تغيبه حتى أصبح من المتخلفين فى فرقته . وبذا حرم متعة التفوق على أقرانه وبدأ يشعر بالملل من الذهاب إلى المدرسة ، وكان فيما مضى ممثلاً باللهفة عليها ، وأخذ الشعور بالملل يزداد حتى بلغ فى نهاية الأمر إلى التمارض المتكرر ، والتماس شتى الحيل هرباً من المدرسة التى ستمتها نفسه بعد أن ذاق بها مرارة التخلف . هذه قصة ابنى من البداية وأرجو أن تساعدنى فى علاجه .

وبعد أن سردت الأم هذه القصة ، بدأت أوضح لها الأخطاء التربوية التى ارتكبها الوالدان فى حق طفلهما والتى تلخص فيما يأتى :

١ - إن إعجاب الوالدين بذكاء طفلهما (ما هو إلا إعجاب بذاتيهما) فى هذه السنة كان إعجاباً ساذجاً ، فلم يتركاه ينعم بالهناء التى كان يلقاها بالروضة ، ولم يتركاه شعوره بالتفوق على أقرانه ينمى فى نفسه وبنيته حوافز الرغبة فى الدرس والثقة بالنفس والاستمتاع بما يخلقه النجاح من لذة فى العمل والجد ، لذلك حرماه من ذلك كله بنقله إلى السنة الأولى الابتدائية وتوفير السنة الثانية فى الروضة .

٢ - لم يدرك الوالدان أن طفلهما - أولاً وقبل كل شيء - طفل من حقه أن يتمتع بطفولته ، وأن ينطلق فى رحابها مرحاً لاعباً ، وأنه فوق هذا عليل ، من حق صحته عليه أن تلقى المزيد من الملاحظة والعناية ، ولكن الوالدين أغفلا هذه الحقيقة . فزاد ضغط المدرسة عليه ولم تتحمل صحته ، فأدى ذلك إلى إصابه بالمرض ، فتأخرت حالته الصحية وكثر تغيبه حتى عدّ من المتخلفين فى فرقته ، وبذا حرم متعة التفوق على أقرانه ، وكان

سينعم بهذا الشعور مدى حياته لو ترك شأنه ليسير في الطريق الطبيعي دون ضغط أو إرهاق .

٣ - جهل الوالدين ببعض المبادئ التربوية اللازمة لكل أب وأم -
 كى يستطيعا تقدير مصلحة ابنهما تقديراً صحيحاً وكى يسعدا ويفخرا بأنه سليم البنية متفوق على أقرانه - أدى هذا إلى الإساءة البالغة التى أصابت الطفل فى جسمه وعقله ونفسه وأخلاقه وفى سعادته وحياته حاضراً ومستقبلاً بلا شك . فإساءة تقدير حدود الطاقة لابنهما فى غير إرهاق ، وأهملاً ناحية هامة كان يمكن أن يستغلها لنفع ابنهما دون أن يحملها ما لا يستطيع ، تلك هى تكوين شخصيته بالمناقشات الودية السهلة والمطالعات البسيطة المفيدة ، ومصاحبته إلى النزهة أو فى أى ناحية من نواحي التجديد والترفيه لتنمية الثقة بنفسه وزيادة قدرته على مواجهة الحياة غالباً لا مغلوباً .

التحليل النفسى للحالة :

حالة الطفل التى سبق ذكرها والأخطاء التربوية التى تعرض لها والاضطراب فى السلوك والتأخر الدراسى وعدم قدرته على التكيف فى مجتمعه المدرسى والمنزلى ، يعتبر مثلاً واضحاً للصراعات الداخلية التى كان يعاني منها نتيجة الضغوط الملقاة عليه كى يستمر بالدراسة وعدم قدرته على تحمل هذه الضغوط نتيجة لسوء صحته ، وبذلك ساءت صحته من الناحية الجسمية والنفسية فزاد تخلفه على أقرانه وفقد الثقة بنفسه وبدأ شعوره بالنقص الذى ظهر فى اضطراب سلوكه وعناده

وعدم طاعته وهروبه من المدرسة وإساءته إلى الآخرين بالعراك معهم (الأمراض التي من أجلها طلب العلاج) . وفي الحقيقة فإن هذه الأعراض ما هي إلا تعويض للنقص والقصور اللذين يشعر بهما الطفل ، والضغط النفسى الداخلى لعدم قدرته الصحية والنفسية على مسايرة ركب الدراسة وتوافقه مع مجتمعه المنزل والمدرسى ، مضافاً إلى ذلك عدم فهم والديه لحاجاته النفسية في هذه المرحلة من العمر ، ومبالغتهما في عقابه والإساءة إليه بسبب ما يرتكبه من أخطاء وانحراف في السلوك وعدم تعاونه مع الآخرين .

واستمر علاج هذا الطفل حوالى ثلاثة شهور - ولحسن الحظ كان ذلك في شهور الإجازة الصيفية - وكان العلاج يشمل : جلسات نفسية للطفل ، وتوجيهاً وإرشاداً إلى الوالدين وتوعيتهم إلى كيفية معاملة الطفل في الظروف المختلفة وتنشئته التنشئة النفسية السليمة كى يستطيع أن يستكمل طريق الحياة الطويل الشاق بشخصية مترنة قادرة على مواجهة الحياة بكل صعوباتها .

وفعلا تم الشفاء للطفل من التاحتين الجسمية والنفسية وبدأ بداية طيبة في العام الدراسى التالى . وأخذ يسير في دراسته بخطى مترنة واثقة ، وتوقف عن السلوك المنحرف في معاملة المحيطين به في المنزل والمدرسة . وأدرك الوالدان أخطاءهما في تنشئته واطمأنوا إلى مستقبل ابنهما لتجاوبهما لتعليمات العلاج .

عادت إليه السعادة بعد الحرمان

الحب هو عماد الحياة الإنسانية . ومن الضروري أن يتناول الإنسان منه جرعات مشبعة من بداية حياته . فالحرمان من الحب كثيراً ما يلوث النفس بالقسوة الحيوانية ويدفع المحروم إلى الانحراف في السلوك أو إلى ارتكاب أبشع الجرائم .

فالحب يبدو في عطف الأم على طفلها وحرصها على البقاء بجانبه دائماً حتى لا يفتردها عندما يحتاج إليها ، وهو إذا جاع فعلى أمه أن تسرع بإطعامه ، وإذا صرخ بالليل متأدياً فعليها أن تأخذه فوراً بين أحضانها تهدده وتدله حتى تعيد إليه هدوء نفسه واطمئنانه . وإذا كان يخاف من الظلام فمن الضروري أن تضاء غرفته بنور بسيط يبدد الظلام من حوله .

وفيما يلي قصة صبي حرم من هذا الحب فأنحرف سلوكه واضطربت نفسيته وجرى به إلى علاجه :

كان سمير في الثالثة عشرة من العمر . نموه الجسمي كان يسبق عمره وأصبح جسمه دائماً أكبر من سنه بكثير مما كان يجب له أشد الإخراج بين زملائه الصغار ، كل شيء فيه مرتب مهني ونظيف . أخذت أمه . . لا شيء في تصرفاته يدل على حالة نفسية شاذة ، عيناه لامعتان . . شفتاه ثابتتان . . حديثه مترن لا تناقض فيه . . وبرغم ذلك فالمظهر الخارجي لا يدل على شيء ، إن كثيراً من الحالات تتميز بمظهر خارجي ثابت

لا يدل على الاهتزاز الداخلي الذي يعانيه المريض . . ثم إن هذا المظهر الخارجي الثابت قد يكون مجرد فترات استراحة بين أزمات نفسية عنيفة . . وبدراسة حالته تبين أن سمير الابن الوحيد لزوجين يختلفان تمام الاختلاف في شخصيتهما ونظرتيهما إلى الحياة . كان الوالد رجل أعمال له اتصالات واسعة بحكم وظيفته التي كانت تستدعيه السفر بعيداً عن بيته لفترات طويلة يعود بعدها إلى بيته ، ومع ذلك فكان لا يشعر بالراحة والاستقرار فيه .

كانت الوالدة مدرسة ميطرة جبارة ، فجعت بعد زواجها منه في ضعفه وزهده في الطموح وتنضيله هذه الوظيفة التي تبعده عن أسرته معظم الوقت . كانت تستبد به وتمحو شخصيته ، الأمر الذي دفع به إلى تمسكه بهذه الوظيفة التي تبعده عن البيت ، وتريحه من سيطرة زوجته معظم الوقت .

ولد سمير في هذا البيت غير المستقر . . كانت أمه شديدة التعلق به ، أى بطريقتها الجبارة المسيطرة ، فاعتيادها التحكم في تلاميذها وإجبارهم على النظام ، دفعها إلى السلوك ذاته مع ابنها الصغير ، فكانت في صغره تتركه يبكي الساعات في فراشه معتقدة أنها ما دامت قد أطعمته وغبرت ثيابه فعليه أن يلزم الهدوء في سريره ولا يصح أن تحمله أو تدلله بلا داع . . وعندما يحين وقت تبوله وتبرزه تضعه على الوعاء الخاص بذلك ، فإن أخرج ما في جوفه كان بها وإذا لم يخرج تتركه في مكانه مهما طال الوقت ، فعليه أن يقبل ذلك .

ولفرط ارتباطها بعملها حرمتها نعمة الرضاعة من ثديها ، فحرم بالتبعية

من حقوقه الطبيعية في الاكتفاء العاطفي الذي يشبعه نفسياً ويمنحه الشعور بالاطمئنان الذي يحده الطفل وهو راقد في أحضان أمه . .

ولشدة لهفتها عليه منعت من الاختلاط بالأطفال الآخرين ، ولكي تعرضه عن هذا النقص غمرته باللعب المختلفة التي يعالج بها وحدته . .

كان تقرير المدرسة عنه بأن ذكاءه فوق المعدل الطبيعي ، كان جميع المدرسين يشهدون له بالتفوق وحسن السلوك ، حتى إنهم كانوا يتنبأون له لتفوقه بمستقبل مضيء ومنح وبعثات دراسية فيما بعد . . كان دائماً الأول بين أقرانه . وكان يمنح الأوسمة والمكافآت تشجيعاً له لاستمراره في هذا التطور . كان من المحتمل أن يبذل مجهوداً شاقاً في الدراسة لأنه كان يعاني من مشاكل أسرية في المنزل . .

وبمرور الزمن ، اكتشفت الأم أن زوجها على علاقة بامرأة أخرى وأن له منزلاً آخر في إحدى ضواحي المدينة يتردد عليه مع رفيقته بين آن وآخر .

وعلى الرغم من أنه في مثل هذه الظروف ينبغي على الفرد التحقق من صحة هذه الأنباء قبل أن يلجأ إلى أي تصرف ، ومع ذلك فقد زادت من سوء معاملتها لزوجها والحدق عليه ، وكانت تلجأ إلى إثارة المشاكل والخلافات والعراك في الأسرة . وكانت دائماً تحاول أن تشرك ابنها سمير في خلافاتهما التي لا تنتهي . . وكانت تغرس في نفس ابنها الكراهية والحدق الشديدين نحو والده ، واتهمته بأنه إنسان شرس لا يحب أسرته ولا زوجته ولا ابنه ، وأنه يقضي معظم وقته في الخارج مع نساء مستهترات ولا يهتم بحياته الزوجية . .

وأخيراً تركت المنزل وذهبت إلى بيت والدها ومعها ابنها سمير .
كان والدها المسنان يعيشان في منزل صغير لا يتسع لإيواء فردين
آخرين ، يضاف إلى ذلك عدم رغبتهما في تحمل عبء ، وشقاوة وضوضاء
صبي صغير ، حتى إنهما أنفسهما لم يرغباً في إنجاب ولد لعدم استعدادهما
لتحمل مضايقات صبي صغير ، ومع ذلك فلم تحاول الأم تعديل
الأمر ووضعها في صورة محبة إليه : فكان يعاني من سوء معاملة جده ،
فكان يضيق به ويقسو في معاملته ، فكان يضربه ويطرده من البيت
بالليل لأبسط هفوة لا تستحق العقاب ، فلا يجد المسكين مكاناً لمبته
سوى أروقة الشوارع أو مداخل العمارات أو مقاعد الحدائق العامة . .
وكانت الأم ترى هذا الجحيم المستمر الذي يحترق فيه ابنها ولا تمد يدها
لمعونه خوفاً من أن تغضب والدها فيطردها هي الأخرى .

بدأت المتاعب تظهر بوضوح على سمير في المدرسة فبدأ يتأخر في
دراسه وينحرف سلوكه فكان يميل إلى إيذاء الغير وإهمال واجباته المدرسية
وهروبه من المدرسة وتشرده في الشوارع ، ويتبع ذلك كثرة الشكاوى من
الجيران لما يسببه من إيذاء وتحطيم ممتلكات الآخرين .

أصبح سمير في حالة نفسية مضطربة ، فظهر ذلك في سلوكه
المنحرف الذي أخذ يزداد إلى أن أصبح في حالة شرسة مما كان سبباً في
استدعاء المدرسة لوالده الذي كان يرغب في ضم ابنه إليه ، ولكن الأم
قاومت هذه الرغبة . فإن أنانيتها وتفكيرها المركز حول نفسها من أسباب
تجاهلها ابنها وعدم إعاطته بحبها ورعايته منذ طفولته ، فرفضت تسليمه
لوالده اعتقاداً منها بأنه كان له التأثير السيئ عليه منذ ولادته ، الأمر الذي

أدى إلى النتيجة السيئة الحالية . . فتركها الوالد وعاد إلى حيث جاء لأنه لم يرد أن يدخل نفسه في مشاكل أخرى . . ولم يهتم بأمر ابنه وتركه إلى غير رجعة . .

كان سمير شديد الحقد والكراهية لوالده لما غرسته أمه في نفسه منذ طفولته . . استمر انحرافه الذى ظهر في ظاهرتين من الأعراض . . السرقة والاعتداء : وفى مرة كان اعتداؤه بصورة غير محتملة ، فلجأت أمه إلى تسليمه إحدى مؤسسات الأحداث لأنه أصبح في حالة شرسة : وهى غير قادرة على التحكم في سلوكه ولا تستطيع تحمل استمرار بقائه معها لما يسببه لها ولوالديها من متاعب غير محتملة . .

وكان من ضمن العوامل التى زادت في هذا السلوك غير الطبيعى ، أن الصبي نفسه قد اقتنع من كثرة ما كان يقرأ على سمعه من تعليقات الجدة بأن الصبي يجرى في عروقه « الدم الرديء » الذى انتقل إليه من والده ، فكانت النتيجة الحتمية لهذا الاقتناع ظهور هذا الانحراف السلوكى . وأخيراً حجز سمير بمؤسسة من مؤسسات الأحداث لفترة معينة ، حيث ازدادت الحالة سوءاً ، فكان لهذه الفترة أثرها النفسى والتربوى عليه حيث عانى فيها أقصى التجارب وأمرها في الحياة ، إذ كانت المشرفات هناك ينكلن به لأبسط هفوة تصدر منه ولا يعطينه من الطعام ما يكفى لسد رمقه ويتركه ينام بالليل والظلام الدامس يخيفه وهو وحده ، فيصرخ ويرزعج المقيمون معه في المؤسسة . وبدأ يبلل فراشه ليلاً ، ويقوم مذعوراً من فرع ليل رهيب وكان إذا بل الفراش يعاقبه بالضرب المبرح . ولقد أتت هذه المعاملة القاسية بعكس النتيجة : إذ ظل يتبول على

نفسه إلى أن اشتد عوده وكبر . . وكانت المشرفة هناك حينئذ تأمره بتغطية رأسه بالملاية المبللة بالبول وتطوف به على أقرانه تحرضهم على إهانته والتنكيل به . . فكان يعاني ويحترق بلهب العذاب والعزى والحرمان .

كانت نوبات الفزع الليلي التي كانت تنتابه ليلاً نتيجة وجوده في آتون العذاب ، فيظل يصرخ ويبكى حتى يصل صوته إلى آذان المشرفات ، فيسرعن إليه وينزلن به العقاب اللازم جزاء عصيانه .

وأخيراً بدت بارقة الأمل في أفق سمير عندما تزوجت أمه بأحد المدرسين التربويين ، وهو زميل لها في عملها . ورضى هذا الزوج أن يعيش الابن معهما ، وخرج الصبي من المؤسسة ليستشق نسيم الحرية في أول مرة في حياته ، ولحسن حظه كان هذا الزوج طبيب الخلق عطوفاً على سمير ، شعر بأن هذا الانحراف السلوكي الذي يظهر في تصرفاته في حاجة إلى المشورة الطبية النفسية وبصفة عاجلة ، فأقنع والدته بذلك وجاء به إلى علاجه . .

استمر علاجه عدة شهور أخذت أنقب في لفائف العقل الباطن عما يخترنه من الدوافع إلى هذا السلوك المنحرف . ولقيت مقاومة شديدة في فتح عقله الباطن . . ولكن أمكنني التحايل على عناده بأساليب العلمية . أحداثه وأناقشه وأستدرجه إلى الإقضاء بدخيلة نفسه بقصد الوصول إلى خفايا عقله الباطن ، وما يكمن بين طبقات اللاوعي من دوافع أدت إلى انقلابه من صبي هادئ ذكي متفوق في دراسته إلى صبي منحرف شرس فاشل في دراسته متشرد يؤذى ويعتدى ويسرق . .

وبعد فترة وجيزة من العلاج بالأدوية المهدئة والجلسات النفسية

أمكننى أن أكسب ثقته ، وأمكننى أن أصل إلى قرار العقدة التى ذهبت
برشده ، واطفؤ بها إلى السطح حيث العقل الواعى القادر على تصفية العقد
ورد العقل إلى توازنه الطبيعى . فحين وجد سмир المناخ الأسرى الدافئ
الذى حرم منه منذ طفولته بدأ يستعيد قدرته ونبوغه ومحاولاته لتحقيق
آماله ، وعلى الرغم من أن هذه المحاولات كانت شاقة وبجهد لأى فرد
فى مكانه يتعرض لمثل ظروفه ، فقد تمكن تدريجياً أن يعيد إحساسه
بوجوده بتدعيم حياته مرة ثانية بالقيم اللازمة لأى فرد ، لكى يحيا حياة
كريمة منتجة بحب وبحب ، وعادت إليه ثقته بنفسه وزال عنه الإحساس
بالنقص الذى كان قد غرس فى نفسه بسبب تحطيم حياته الأسرية .

ولقد أمكننى شفاء سмир ، فاستطاع أن يتم دراسته الثانوية بنجاح
ثم دخل الجامعة وانتظم فى صفوفها موقفاً وكان ذلك بفضل أمرين
هامين :

أولهما - بقايا الخير الكامنة فى نفسه ، والأمر الثانى أسلوبى فى
علاجه ، فلم أصدر عليه حكمى بالإدانة ولم أشعره بأنه منحرف ،
بل أقنعت أنه مريض وسوف يشفى بالعلاج تماماً .

فبالحب الصحيح والتقدير والحزم والصراحة استطاع العلاج النفسى
أن يكشف للصبي عن أصول علته ، ويرشده إلى طريق السلامة .

وكان يصاحب العلاج النفسى توجيه لوالدته ولزوجها عن كيفية
معاملة والأسلوب الصحيح فى تنشئة تنشئة نفسية صحيحة . وقد استجاب
للتوجيه ، ولا سيما حين بدأت بوادر الشفاء تظهر عليه .

التحليل النفسى للحالة :

الحرمان من حب المحيطين به :

ليس هناك أقسى على النفس وأشد مرارة على إحساس الطفل من أن يكون مكروهاً وغير مرغوب فيه من أى شخص ممن يحيطون به . . فإن أهم عنصر لبناء الشخصية السوية أن يحس الإنسان خصوصاً فى بداية حياته بأنه مرغوب فيه خصوصاً من أقرب الأقربين إليه . . فهل أعطى سمير فرصة الإحساس بذلك ؟ الجواب طبعاً بالنفى . . فأبوه لم يكن يريده منذ مولده بدليل قسوته على زوجته وتخليه نهائياً عنه ، وكذلك تخلت أمه عنه أيضاً ووضعت فى المؤسسة راضية . . بعد أن ذاق العذاب من معاملة جده وضربه ، وأحياناً تعذيبه وأحياناً طرده بالليل إلى ظلام الشارع حيث لا فراش ولا أنيس ولا مأوى . .

كأن الظروف تكاثفت لتقع سمير فى جميع مراحل حياته بأنه مخلوق تعس لا يريده أحد ، والجميع لا يريدونه ويتمنون القضاء عليه دون ذنب جناه . . هذه الأوهام البشعة والمشاعر الحزينة التى أوجدتها ظروفه المثقلة بالعذاب والحرمان ، هى التى دفعته إلى إيذاء صبية آخرين أبرياء لم يسيئ أحدهم إليه مثلما لم يسيئ هو إلى أحد . . ومع ذلك فقد تجمرع من العذاب ألواناً مختلفة . . فالطفل كى يتحول إلى إنسان كبير سليم النفس والأخلاق يحتاج إلى أكثر ما يحتاج إلى الشعور برغبة الآخرين فيه ، لا بالكلام المفتعل ، بل بالعطف والحنان والرفق والتسامح بالابتسامه الحلوة والقبلة الرقيقة والضممة الحانية والاستعداد لحبه بكل أخطائه ومساوئه

أهمية الاختلاط بالآخرين :

إن الطفل يحتاج في مرحلة نموه المبكرة إلى الاختلاط بأبناء جنسه من الجنسين ، فمن طريق تعامله معهم يتعلم التعامل مع الحياة وينضج إدراكه في ظل الروابط الاجتماعية . . وهو ما لم يحدث لسمير الذي أبعدته أمه عن الاختلاط بالأطفال الآخرين ، فسلبته القدرة على التعامل الاجتماعي ، وسلبت موهبة التعبير عما يحول بخاطره ، وتركته في معركة ضارية مع نفسه القاصرة التي تجسم له عجزه وتقافته ، وتغريه بمحاولة القيام بعمل - أى عمل - يثبت به رجولته ، ويسترد به احترامه لنفسه ، ذلك الاحترام الذي دمّره أمه بسيطرتها عليه واحتقارها له ، وأضاع عليه فرصة الفوز بهذا الاحترام بتخلي أبيه عنه ، وعدم محاولة الاهتمام به ورعايته وإشعاره بحبه .

أهمية التنشئة النفسية السالحة :

إن الإنسان لكي ينشأ تنشئة تربوية سالحة تساعد على الاستمتاع بحياة مستقبلية هائلة يحتاج بالضرورة أن يعيش طفولته الأولى بكل أبعادها دون أى قيد خارجي يشكل ضغطاً نفسية أو جسمانية عليه . . ولكي يعيش طفولته بكل أبعادها ينبغي أن يترك - خصوصاً خلال العامين الأولين من عمره - على سجيته يمارس الحريات الطبيعية التي تقتضيها طبيعة هذه الفترة من عمره ، ومعنى ذلك أن يأكل عندما يجوع ويتبول حيثما يشاء . فمحاولة منع الطعام عنه وحرمانه من حرية التبول على نفسه بفرض نظام صارم لا يستطيع الطفل أن يدرك معناه ولا تقوى طبيعته على اتباعه -

يؤدى إلى حرمانه من حقه فى التمتع بطفولته التى هى غذاء روحى يبنى الأساس القوى لشخصه ، ويدفعه بفعل الضغط عندما يكبر ، إلى العودة إلى الطفولة فى أثناء نموه : وهى حالة اللاوعى فى حياة الإنسان لممارسة الحريات الطبيعية التى حرم منها .

لذلك ينبغى على الأم الواعية العاقلة أن تتجنب تنظيم تبول-الطفل خلال السنتين الأوليين من حياته بصورة صارمة يتخللها القسوة والعقاب والتهديد والوعيد فى حالة الفشل . . بل تبدأ فى تنظيمه بالتدريج مع التفهم لحاجاته النفسية ، وذلك لأن تبول الطفل على نفسه بعد سن الطفولة بمثابة الاحتجاج الشديد على الضغط الظالم الذى تعرض له فى بداية حياته فيحرمه حقه من الاستمتاع بطفولته .

وهذا ما حدث لسمير ، فقد حرمت أمه بقسوتها البالغة أن يعيش الفترة الأولى من حياته على سجيته وبذلك سلبت طفولته وسلبت معها فرصه فى أن يبنى شخصية سليمة . . لقد أضافت إلى هذه الجريمة جريمة أخرى وهى إلحاقه بالمؤسسة حيث لاقى من قسوة المشرفات بها والتنكيل به باستمراره فى التبول بعد أن شب عن الطوق وكبر ، ودفعته بذلك إلى احتقار نفسه ، بل ويرى نفسه فى صورة إنسان منحرف غير طيعى .

الأخطاء التربوية :

١ - عدم توافق الوالدين واستمرار الخلاف بينهما أدى إلى اضطراب الحياة الأسرية التى تعتبر البيئة التى ينشأ بها الطفل وينمو ، فضاء الانسجام الأسرى الذى يعيش فيه سمير .

٢ - حقد الأم على زوجها وبث روح الكراهية في الطفل نحو أبيه كان ذلك من الأسباب الهامة في انحراف سلوك سمير لكراهيته لوالده ، وبالتالي كراهيته للمجتمع وأفراده وارتكابه حوادث الإيذاء للآخرين .

٣ - استمرار بُعد الأب عن المنزل هرباً من المشاكل والخلافات الأسرية الأمر الذي أدى إلى اتساع فجوة الكراهية بين الأب والابن وإحساس الطفل بعدم الانتماء لوالد يحنو عليه ويحبه ويرعاه .

٤ - عدم تفهم الأم بحاجات ابنها النفسية في كل مرحلة من مراحل عمره أدى إلى عصيان الطفل وعدم طاعته لها ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى رغبتها في التخلص منه بإيداعه في إحدى المؤسسات الخاصة بالأطفال حيث لاقى المراتة والعذاب في المعاملة فأصبح يكره الناس والمجتمع ونفسه .

٥ - أنانية الأم واهتمامها بأمور نفسها وعدم إحساسها بحاجة الطفل إلى حبها ورعايتها وحنانها هو الغذاء الأساسي الذي تنمو عليه شخصيته وحياته مستقبلاً . . فحرم من أهم الأسس الهامة لبناء شخصيته .

٦ - قسوة معاملة الجميع له وكأنما تكاتف الجميع ضده ، وعدم تقديرهم لمشاعره وحاجته إلى الحب والحنان والفهم . . الأمر الذي أدى في النهاية إلى إحساسه بأنه غير مرغوب فيه . . فحقد على الناس وكره نفسه .

٧ - سوء معاملة المشرفات له في المؤسسة والتككيل به وعقابه بأشد أنواع العقاب في حالة وقوعه في أي نوع من الخطأ زاد من كراهيته لأمه ولوالده وللمجتمع . . ورغبته في الانتقام بارتكابه حوادث الانحراف بصورها المختلفة .

كما سبق نرى أن البيت للطفل بمثابة الأرض للبذرة ، فالأرض الطيبة تنمو فيها البذرة نمواً طبيعياً سليماً وتنتشر انتشاراً يعطى أكبر إنتاج تستطيع هذه البذرة - كذلك البيت الهائى هو المكان الذى ينمو فيه الطفل نمواً طبيعياً سليماً من جميع الوجوه . جسمياً وعقلياً واجتماعياً ، وهو أيضاً المكان الذى تفتح فيه الاستعدادات الكامنة لدى الطفل - فتكشف له قدراته ، ويطمئن إلى نفسه وإلى من حوله - وبعبارة موجزة البيت الهائى هو البيت الذى يكسب الطفل ما يؤهله لمواجهة الحياة خارج البيت - وهو أيضاً المدرسة الأولى للمراتبة الاجتماعية . فإذا خطا الطفل الخطوة التالية وخرج من البيت ينضم إلى المدرسة ويصبح عضواً فى أسرته ، أقبل عليها مرحباً ، لأن الجو العائلى فى البيت مهد له السبيل لكى يقيم علاقاته بالغير على أساس من الطمأنينة والتعاون .

وكما أن الأرض الضعيفة تسمى إلى البذرة ، كذلك البيت المضطرب لا يصلح بأى حال لتنشئة الإنسان الصغير ، مهما توفر المال والجاه وغير ذلك من وسائل التعويض المادى . البيت المضطرب لا يخرج منه إلا إنسان مضطرب التفكير ، معتل الإحساس ، تعوزه سلامة النظر إلى نفسه وإلى الغير ، ولن يكون هذا الفرد سعيداً ولا مواطناً نافعاً فقط ، بل يؤدي عدم الانسجام والتوافق الأسرى إلى إصابة الأطفال بالاضطرابات النفسية والانحرافات السلوكية التى تؤول فى النهاية إلى أسوأ المصير إذا لم تطلب المشورة الطبية النفسية للعلاج .

لذلك ينبغى أن نكون حريصين على أن نحيط الطفل دائماً بالجو العائلى الهائى . الذى يمد صاحبه بالطمأنينة والشعور بالدفء ، ويتيح له

حرية فردية ينظمها التفكير التعاوني والرغبة في رعاية حقوق الغير - ينبغي أن يكون البيت المكان الذي تقوم فيه المعاملة على أساس من الزمالة والتقدير ، المكان الذي يجد أصحابه الصدر الكريم الذي يجمع بين العطف والحزم والقلب الكبير الذي فيه متسع للتسامح ، والعقل الراجح الذي يحسن الترجية وأداء النصيحة . . . بذلك يمكن خلق جيل ناضج متزن ناجح نساعد به نحن والوطن أيضاً .

كيف شفيت وفاء من التبول اللاإرادي

جاءتني إلى العيادة امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها متوسطة الجمال ، يبدو عليها القلق والاضطراب ، تشكو من أن ابنتها وفاء (البالغة من العمر خمسة عشر عاماً) تتبول أثناء نومها في كل ليلة ، وأن هذا الأمر يسبب قلقاً شديداً لها ولوالديها ولا سيما أن الفتاة هي الكبرى من طفليها . وقد حدث هذا عقب وفاة والدها وهي في سن الرابعة أي بعد أن كانت قد قطعت مرحلة طويلة في ضبط نفسها من التبول .

وبدراسة الحالة وجدت : أن الحالة الصحية للفتاة طيبة وخالية من جميع الأمراض الجسمية التي يحتمل الرجوع إليها ، وأن الأسرة كانت حالتها المالية فوق المتوسط ، وكان الوالد شاباً ناجحاً في عمله ، وكان كل من الوالد والفتاة متعلقاً بالآخر تعلقاً شديداً ، فكان الوالد يأخذ وفاء معه في نزهاته وفي الحفلات الكثيرة التي يدعى إليها ، وكانت وفاء لحبوبيتها

وجمال شكلها وذكائها ولباقتها موضع فخر والدها وموضع التفات أصدقائه ، وكان الوالد مرتبطاً بذهن الفتاة برباط جميل .

مات الوالد فجأة ، وشاهدت وفاء بعد ذلك ما يصحب الوفاة من أمور مزعجة غير عادية ، وبذلك حدث انقلاب مفاجئ في حياة الطفلة ، ويلاحظ أن الأم كانت أقل تعلقاً بالابنة عن الوالد وكانت أكثر تعلقاً بابنها الصغير عنها . وبعد وفاة الوالد حصل هبوط شديد في مستوى موارد الأسرة مما اضطرها إلى تغيير مستوى معيشتها تغيراً كبيراً . فقد أخذت الأم أولادها وسكنت مع أمها في مكانها الذي لم يكن يتسع أصلاً إلا لها ولابنتها الأخرى وابنها الصغير ، ومع ذلك اتسع المنزل لوفاء وأمها وأخيها . وبعد مدة قصيرة تضايقت الجدة من الأطفال وميلهم إلى الحركة واللعب والصياح الأمر الذي لم تعتمد عليه في سنواتها الأخيرة . فكانت تلقى سخطها على مسمع من الأولاد ، ونظراً لأن وفاء أكثر نشاطاً وانطلاقاً من أخيها الصغير فقد كان يخصها من سخط جدتها النصيب الأكبر . وما إن وصلت الفتاة إلى سن السادسة حتى بدأ يحدث في مجال حياتها تغيير جوهري آخر هو أن أمها بدأت تفكر في الزواج . وكانت وفاء غير راضية عن هذا الزواج ، وعدم رضاها قد يكون بعضه بوحى من حولها ، من جدة وخال وأقارب وبعضه قد يكون لأنها كانت تحس إحساساً غامضاً بعضه قد يكون راجعاً إلى أن نفسها تأني أن يحل شخص غريب محل والدها ، وبعضه قد يكون راجعاً لما كانت تسمعه من أن زوج الأم يجعل جو المنزل عادة غير سائغ للأطفال من زوج آخر .

خلاصة الأمر أن الفتاة كانت كارهة لهذا المشروع وكارهة لأمها ،

وبالتالى أصبحت أمها تكرهها ، وكانت تعرض أختها الصغير عليها لدرجة أنها كانت تطلب منه أن يصبق في وجهها ويعيرها بالتبول ليلاً إذا أغاظته . وبهذا أصبح مركز الطفلة في مجال حياتها ينتقل بسرعة من سئ إلى أسوأ ، فبعد أن فقدت الفتاة أباه لم يجد في أمها أو جدتها عوضاً ، بل بالعكس وجدت منهما حقداً على حد تعبيرها وتقديرها . وأخذت هذه الخصومة تزداد ، وبذلك ازدادت مخاوفها وازداد ضعف ثقتها بنفسها زيادة كبيرة . ولوحظ أن الفتاة في أثناء نومها كانت تقلب وتنام نوماً مضطرباً . وكانت عند تبوها في أثناء نومها تصبح وتشم موجهة شتائمها للنساء . وكان تبوها مسحوباً بشبه كابوس شديد ، وأحلامها كانت مصارعة الثعابين التي كانت تعضها وتغليها على أمرها (ولعل الثعابين كانت في أحلامها لخطيب الأم) .

التحليل النفسى للحالة :

كانت الفتاة مرتبطة ارتباطاً شديداً بوالدها ، لا سيما وأن أمها كانت أكثر تعلقاً بالابن الصغير مما أدى إلى بعد الأم لا شعورياً عن حياة وفاء وتعويض ذلك بحب الوالد وحنانه عليها . فعين فوجئت بوفاة والدها صدمت وشعرت بفقد السند الذى كانت تشعر بالاطمئنان في وجوده فأصابها الاضطراب والقلق والخوف وعدم الإحساس بالراحة النفسية ، فكانت نتيجة ذلك أن بدأ التبول اللاإرادى مباشرة بعد وفاة والدها .

ومن العوامل التي زادت في سوء الحالة النفسية لوفاء هو :

١ - سوء معاملة أمها لها وحرمانها من كل رغباتها ، ولا سيما بعد سوء

الحالة المالية للأسرة عقب وفاة الوالد .

- ٢ - قسوة الجدة عليها بصورة شديدة حين ترتكب خطأ غير مقصود .
- ٣ - عدم إحساس الفتاة بكرامتها لسوء المعاملة والإهانة التي كانت تلاقىها من أخيها الصغير بتحريض من الأم .
- ٤ - رغبة الأم في الزواج الأمر الذى أضاف إلى وفاء القلق النفسى والخوف من المجهول مما زاد في كراهيتها لأمها وزيادة كراهية الأم لها بالتالى .

وبذلك فقدت الفتاة الإحساس بالأمن والثقة بالنفس وأصابها الشعور بالنقص والقلق والخوف وعدم الشعور بالطمأنينة ، الأمر الذى أدى إلى عدم قدرتها على التحكم في التبول ليلاً وابتلال فراشها مرات متكررة كل ليلة ، وظهر الاضطراب في أحلامها وفي الكابوس الذى كانت تصاب به في أغلب الليالى .

حاولت الحصول بعد مقاومة كبيرة على تعاون الأم في علاج ابنتها ، وذلك بانتظام ترددها للعلاج والمتابعة في جلسات نفسية مع وفاء ومقابلات مع الأم بمفردها لتوجيهها إلى كيفية معاملة ابنتها حتى تشفى من الأعراض التى تسبب لجميع الذين يحيطون بها الكثير من الإزعاج ، وقد أوضحت لها ذلك بضرورة المساواة في المعاملة بين الفتاة وأخيها وفى بذل الجهد لمساعدة ابنتها على الشفاء من التبول اللاإرادى . (وفى فهم حاجتها النفسية ، وإعادة كرامتها إليها وإغداق الحب والحنان اللذين حرمت منهما منذ وفاة والدها) . كانت فرصة علاج وفاء وسيلة أيضاً لعلاج الأم التى كانت فى حالة نفسية غير مرضية للظروف التى كانت تعاني منها بعد وفاة زوجها وسوء

الحالة المالية وحالة ابتها المضطربة غير الطبيعية وتبؤها في فراشها ليلاً .
وبانتظام العلاج أمكننى أن أحقق الشفاء للفتاة وفي تحسين مركزها
بتحسن مجال حياتها والوصول بها إلى شعورها بحب والدتها وتقديرها لها ،
وبذلك توقف التبول اللاإرادى نهائياً . وعاد إليها الاتزان النفسى وتخلصت
من الاضطراب السلوكى الذى كان من مصادر الشكوى والرغبة في
العلاج منها .

كما سبق نرى أن التبول اللاإرادى أحد أعراض الاضطراب الانفعالى
الذى ينشأ نتيجة ظروف ييشية وأسرية غير ملائمة وسوء معاملة الطفل وعدم
تقدير مشاعره وحرمانه من الحب الذى يعتبر الغذاء النفسى له . فإذا توفرت
للطفل البيئة الهادئة البعيدة عن الاضطرابات والاختلافات شعر بالأمن
والاستقرار ، وكذلك إغداق الحب والحنان عليه اللذين يعتبران من
الأعمدة الأساسية الهامة لتكوين شخصية متزنة بعيدة عن القلق والكراهية
تساعده على النضج الانفعالى فينشأ متعاوناً محباً لأسرته ولوطنه بعيداً عن
أعراض الاضطراب النفسى .

الغيرة حولت مها الوديفة إلى فتاة مشاكسة

الغيرة أحد المشاعر الطبيعية الموجودة عند الإنسان كالحب والألم ،
ويجب أن تقبلها الأسرة كحقيقة واقعة ولا تسمح في نفس الوقت بنموها ،
فالقليل من الغيرة يفيد الطفل ، فهى حافز يحثه على التفوق ، ولكن

الكثير منها يفسد الحياة ، ويصيب الشخصية بضرر بالغ ، وما السلوك العدواني والأنانية والإرتباك والإنزواء إلا آثار الغيرة على سلوك بعض الأطفال ، ولا يخلو طفل من إظهار الغيرة بين الحين والحين ، وهذا لا يسبب إشكالاً إذا فهمنا الموقف وعالجناه علاجاً سليماً ، غير أن الغيرة قد تصبح عادة من عادات السلوك وتظهر بصورة مستمرة ، وهنا تصبح مشكلة ، ولا سيما حين يكون التعبير عنها بطرق متعددة من السلوك غير الطبيعي .

وفيما يلي يظهر تأثير الغيرة على سلوك مها الوديعة وكيف أصبحت مشاكسة :

حضر الوالدان إلى عيادتي ومعهما ابنتهما مها في ميّعاد سبق الاتفاق عليه للفحص الطبي النفسي على ابنتهما البالغة من العمر أحد عشر عاماً . . كانت الشكوى منها بأنها قلقلة ، غير مستقرة ، مترددة ، خجولة ، غير قادرة على التفكير المستقل ، لا تستطيع التركيز في أى عمل ، عنيدة غير مطيعة ، دائمة الشجار مع أختها الأصغر منها لدرجة الأذى في بعض الأحيان والسب بألفاظ نابية - يضاف إلى هذا أنها متأخرة في دراستها وغير متجاوبة مع مدرسيها الذين يبالغون في عقابها كي يستقيم أمرها حسب اعتقادهم . وبدراسة الحالة تبين ما يلي :

كان الوالدان يعملان في حقل التربة والتعليم ، وكانا يؤمنان بأنهما على وعى تام بأصول التربية النفسية لأطفالهما ، فهما يبدلان جهداً كبيراً في تطبيقها في معاملتهما لها . . وقد أظهرتا الأسف الشديد لعدم قدرتهما على تنشئة « مها » على هذه الأسس السليمة وأصبح

سلوكها غير محتمل . .

كانت «مها» الطفلة الأولى لزوجين متحابين ، تزوجا بعد فترة تعارف طويلة ، إذ كانا يعملان معاً في نفس المدرسة . واستمرت «مها» في الستين الأوليين الطفلة المدللة المحبوبة من والديها ، طلباتها مجابة ، يغدقان عليها الحب والحنان والعطف بدون حدود إلى أن جاءت الطفلة الثانية ، كانت أكثر جمالاً وألفة من «مها» فاستحوذت على قلب أمها ولم تترك بذلك القلب مكاناً ولو صغيراً للأخت الكبرى التي ظلت إلى وقت قريب قرة عين والديها ، وبعد أن كانت تجلس على عرش المحبة في أسرتها ، أصبحت تجد نفسها محرومة من جميع ما كانت تستمتع به من قبل . فقد شغل والداها عنها بالطفلة الحبيبة الجميلة ، كما شغلت مربيتهما بالطفلة الصغيرة والسهر على خدمتها . .

وبمرور السنين زاد حقد «مها» على أختها ولا سيما أن الوالدين كانا دائماً يقارنان بين الأختين ويقيان موازنات بينهما ويذكران عيوب مها التي تسبب لها المتاعب . فكانت الأخت الصغرى تشعر بأنها قد بلغت الذروة وتشعر الكبرى بأنها قد هبطت إلى الحضيض ، وهكذا ثبطت همة مها وانكمشت في نفسها وتراخت في عملها . وتشجعت الابنة الصغرى وتقدمت في عملها . وكلما زادت الموازنة بين الأختين زادت مها تألماً وزاد انحرافها وحقدتها على أختها فيزداد الشجار والخلاف بينهما الذي كان يؤدي في النهاية إلى مهاجمة مها وإنزال أشد العقاب بها . . وزادت الأخت الصغرى نشاطاً وتحمساً في عملها وكراهية لأختها مها ، كانت مها تعمل في الظاهر أحياناً وتستذكر دروسها ولكنها تشكو

من أنها لا تفهم ما تقرأ .. وأن فكرها مشئت دائماً عند محاولتها الاستدكار ، فيطير عقلها ويشرد منها انتباهها إلى درجة تصبح معها في حالة نفسية سيئة يعكس أثر ذلك على سلوكها المشاكس على أختها . يضاف إلى ذلك أن الوالدين كانا لا يسمحان لها بالاشتراك مع بقية الأسرة في الحديث أو الفسحة أو المجالسة أو غير ذلك كنوع من العقاب لسوء سلوكها وعدم تعاملها الطيب مع أختها .

استمرت مها في هذا الجو غير الصحي نفسياً وكبتت معها متاعبها النفسية ، وتصورت فيما بعد بإدراكها الساذج أنها لم تعد مرغوباً فيها وأنهم جميعاً قد تحولوا إلى أعداء لها ، فأغراها ذلك الموقف بالتمرد على أمها وعصيان أوامرها ورغباتها على سبيل الانتقام لنفسها من الأم التي هجرتها وأغلقت أبواب قلبها عنها .

أخذت الأم بظواهرها ، واعتبرت ابنتها مخلوقة شريرة فقست في معاملتها وحرمتها على سبيل التأديب لذائد الطفولة المختلفة ، ولم تكن تخرج عندما تنأزم المواقف بينها وبين الطفلة الصغيرة إلى تزويدها بالعقوبات البدنية التي كانت تضاعف من شعور الطفلة بالمهانة وتدفعها إلى الانتقام لكرامتها بمزيد من العصيان والحقد والشقاوة .. وكان ذلك يزيد إحساسها بالنقص لمقارنتها علانية بأختها الصغرى ..

كان سلوك «مها» في المدرسة غير مرض أيضاً : وزادت الشكوى من المدرسات لعدم تقدمها الدراسي وإثارة الشغب والفوضى بين التلميذات ، وكانت المدرسات يلجأن إلى عقابها وضربها حسب رغبة والديها كي يستقيم أمرها وفق اعتقادهم .. ومع ذلك فكانت حالة مها

النفسية تسوء وسلوكها أصبح منحرفاً وصارت تكره الذهاب إلى المدرسة في معظم أيام الأسبوع إلا في بعض الأيام ، فكانت حريصة على عدم التخلف في أيام معينة من الأسبوع . . وبدراسة الموقف تبين أنها كانت تواظب على حضور حصص المواد الاجتماعية : لأن المدرسة القائمة بتدريسها تحب مها وتقدر ما تعانيه ، وكانت تحاول أن تعاملها معاملة تختلف كلية عن الآخرين . . فتحاول التفاهم معها وتوجيهها بطريقة فيها الحب والحنان . . فكانت تستجيب لها وتبدأ ولاسيما في حصصها ، أما باقي الأيام ، وباقي الحصص فكانت تهرب من الحضور لأنها كانت تعامل معاملة سيئة من جميع المدرسين الآخرين . .
وأخيراً اضطرت والداهما إلى عرضها على للفحص الطبي النفسي لعلاجها حين ازداد انحرافها سلوكياً في المدرسة وفي المنزل .

التحليل النفسي للحالة :

إذا تعمقنا في دراسة مشكلة « مها » وجدنا أن كل ما حولها يفقدها الشعور بالأمن والاستقرار والثقة بالنفس ، وإحساسها الدائم بالنقص . . فهناك توبيخ الوالدين وهناك رسوبها ونجاح أختها الصغرى . . وهذا كله يترك في الطفلة آثاراً يترتب عليها شعورها بعدم الجدارة ونقص الكفاءة وبعدم القدرة على العمل .
وكذلك عدم قدرتها على التركيز والفهم لتشتت فكرها وشرود ذهنها ، إذ أن عقلها في هذه الحالة ينقسم إلى قوتين : إحداهما الرغبة في النجاح والتفوق ، والأخرى شعور خفي يستول عليها ويهبط بجهودها ويشعرها

بأن الإخفاق أمر لا بد منه . . والفتاة حين تتعرض للصراعات النفسية تصبح مخلوقة يائسة ترغب وتعجز عن تحقيق رغبتها ، وتفقد النية ولا تقوى على تحقيقها ، وهى لا تدرك سر القوى الخفية التى تعمل بداخلها والتى هى من غرس الجو المنزل المحيط بها ، والتى تجعلها غير قادرة على العمل .

لم يستطع والداها فهم حاجاتها النفسية . وكانا يبالغان فى عقابها بدنياً ونفسياً ، يضاف إلى ذلك مقارنتها بأختها علانية ، فأدى ذلك إلى كراهيتها لأختها واستمرار الشجار بينهما . فزادت الفجوة بينهما ، وساءت علاقتها بجميع أفراد الأسرة ، ففقدت الإحساس بالانتماء وأصبح المجتمع الذى يشمل فى نظرها المدرسة والمنزل حاقداً عليها . . فكانت تفضل الانطواء وعدم مشاركة زميلاتها ، بل كانت تحقد عليهن وتميل إلى الإيذاء والمشاكة .

سلوك الطفل خارج الأسرة يعكس إحساسه داخلها ، فإذا نال الطفل العطف والفهم والحب والحنان - وهى العوامل الهامة التى تغذى نفسه وتنمى شخصيته - أمكنه أن ينقل هذه الأحاسيس إلى الآخرين ويشعر بالسعادة فى الاختلاط والعطاء ويبعد عنه إحساس الحقد والغيرة . أما الطفل الذى يلاقى الكراهية والعقاب والشدة والعنف ويشعر بالغيرة من حوله فى الأسرة ، فإن ذلك ينعكس فى كراهيته للآخرين ، وحقدته وغيرته من يحيطون به ، مما يؤدى إلى الإحساس باللذة فى تعذيب الآخرين وإيذائهم ومشاكلهم لينتقم لنفسه مما يلاقه من أسرته من سوء المعاملة . . وهذا ما حدث فى حالة « مها » .

الأخطاء التربوية :

أخطأ والدا مها في سلوكهما نحوها على الرغم من اعتقادهما بأنهما على حق ، وأهم هذه الأخطاء :

١ - اعتقاد الأبوين أن سلوكهما مع مها هو السلوك التربوي الصحيح واستمرارهما في سوء معاملتها بدنياً ونفسياً دون مراعاة ما تعانيه الطفلة من العذاب النفسي ، وظنهما أن ما ترتكبه من أخطاء ما هو إلا نوع من العناد ، فكانا يبالغان في عقابها .

٢ - استمرار المقارنة بين مها وأختها علانية مع ذكر مواطن الضعف بها ومعايرتها بذلك ، أدى إلى زيادة كراهيتها لأختها . وإحساسها بالنقص والفضل ، وعدم قدرتها على النجاح مهما جاهدت مما أدى إلى رسوبها . . فانتابها الإحساس القاتل بالغيرة من أختها والحقد عليها . . حتى إنها كانت في بعض الأحيان تؤذي أختها انتقاماً من والديها . . وفي نفس الوقت كانت تهتمها بالاعتداء عليها فيثار الشغب والمشاكسة اللذان يشبان دائماً بعقاب مها بأشد أنواع العقاب .

٣ - عدم فهم مدرسات المدرسة لحاجاتها النفسية ، ومبالغتهن في عقابها تلبية لرغبة والديها في هذه الناحية مما أدى إلى كراهيتها للمدرسة والهروب منها فتأخرت دراسياً في بعض المواد ، أما المواد الاجتماعية فكانت متفوقة فيها لحسن معاملة مدرستها لها ، وتقديرها لمشاعرها .

٤ - استمرار سوء معاملة الجميع لها في المنزل والمدرسة أدى في النهاية إلى زيادة انحراف سلوكها واستمرار الفضل في الدراسة ، الأمر

الذى دعا إلى طلب المشورة الطبية النفسية للعلاج .
استمر علاج مها بالجلسات النفسية والأدوية المهدئة بالإضافة إلى توجيه الوالدين إلى كيفية معاملة مها في هذه الظروف ، والاتصال بالمدرسات وتوجيههن إلى تقدير مشاعر الفتاة وتغيير أسلوب المعاملة لإعادة الثقة إلى نفس مها وفي من حولها .

كانت « مها » تنتظم في حضور الجلسات النفسية ، وكانت تشعر بسعادة كبيرة عند حضورها ، وتقدمت تقدماً ملموساً في العلاج ، وساعد على ذلك رغبة الوالدين وتعاونهما في العلاج ومساهمة المدرسة بدورها في مساعدة « مها » بكل الوسائل المختلفة . شفيت مها بما كانت تعانيه من الاضطراب النفسى وظهر ذلك في تجاوزها في دراستها وتحسن سلوكها مع أختها ووالديها ، وزال الشعور بالغيرة والحقد نحو أختها بعد أن حاول الوالدان تصحيح ما ارتكباه من خطأ في هذه الناحية بتشجيعها وذكر النواحي الطيبة فيها وتنميتها .

مما سبق نرى أن الخطأ الأكبر الذى يرتكبه الوالدان والذى يعتبر من أهم الأخطاء التربوية التى تؤدي إلى انحراف سلوك الأطفال هو مقارنة الأطفال ببعضهم ، ولا سيما حين يكون هناك فرق واضح بين طفلين في نواح معينة أو كان أحدهما يتمتع بنواح خاصة . فإن هذه المقارنة تخلق الغيرة بين الأطفال . والغيرة شعور مؤلم يجعل صاحبه قلقاً أنانياً لا يستريح لنجاح غيره ، ويميل أحياناً إلى الانزواء والانطواء ، أو إلى الهجوم والتشاجر . والإيقاع بغيره ، ويشعر فوق ذلك أنه مظلوم

مضطرب ، وأن الناس يعملون ضده . وهذا يجعله قلقاً كثير الشك في الناس . ويلاحظ أن الأساس في الغيرة في أغلب الأحيان هو القلق والخوف وضعف الثقة بالنفس ، وقد تبدو بعض هذه المظاهر عند الطفل بطريقة مقنعة ، فهو يصب غضبه وغيرته أثناء لعبه بعروسة يسميها باسم أخيه أو أخته الصغرى التي تثير غيرته . . وإذا لم يستطع الطفل أن يعبر عن نفسه بهذه التعبيرات فربما اتجه إلى الكذب أو الرغى بدون سبب أو تجاهل الآخرين ، وبخاصة الأفراد الذين يثرون غيرته أو محاولة لفت الأنظار إليه بالتمارض . .

واجب الآباء لمنع الغيرة ووقاية أبنائهم من الوقوع في هذا الإحساس :

١ - في حالة ولادة طفل جديد لا يجوز إهمال الكبير وإعطاء الصغير عناية أكثر مما يلزمه . فيجب ألا يعطى المولود إلا بقدر حاجته وهو لا يحتاج إلى الكثير ، والذي يضايق الطفل الأكبر عادة كثرة حمل المولود وكثرة الالتصاق الجسمي الذي يضر المولود أكثر مما يفيده ، وواجب الآباء كذلك تهئية الطفل إلى حادث الولادة ، وكذلك يجب فطامه وجدانياً وتدرجياً بقدر الإمكان : فلا يحرم حرماناً مفاجئاً من الامتياز الذي كان يتمتع به .

٢ - يجب على الآباء والأمهات أن يقلعوا عن الموازنات الصريحة ، واعتبار كل طفل شخصية مستقلة لها استعداداتها ومزاياها الخاصة بها ، فإذا نجح طفل في عمل ما ينبغي أن نشجعه ولا نوازنه بغيره ، وكل طفل مهما فشل له ناحية طيبة يمكن كشفها وإبرازها والاعتزاز بها . وبذلك

يمكن أن يزول الشعور بالخيبة المؤدى إلى الشعور بالذلة والنقص .

٣ - كذلك ينبغي على الآباء والأمهات ألا يبهروهم ما يقوم به بعض الأطفال من المبالغة في طاعتهم أو تقليدهم ومسايرة آرائهم والعمل على إرضائهم والإعجاب بهم والتظاهر بالحب لهم ، إلى غير ذلك . فلا يجوز لهم أن يؤيدوا هذا النوع على حساب الآخر صاحب الرأى الجرىء الحر ، وهذا الموقف من الأبناء كثير الانتشار وهو من أسباب غرس بذور الغيرة والحقد بين الإخوة وتنشئة بعض الأبناء على النعمة على السلطة والمجتمع عن طريق التحويل من النعمة على الوالدين وبعض أفراد الأسرة .

٤ - الموازنة بين الطفل ونفسه في أوقات مختلفة . فإن تقدم في وقت ما عما كان عليه في وقت سابق فهذا كاف لتشجيعه .

٥ - تنمية الهوايات المختلفة بين الأخوة كالموسيقى والتصوير وجمع الطوابع وغير ذلك ، وبذلك يتفوق كل في ناحيته ويوازن نفسه بنفسه .

٦ - المساواة في المعاملة بين الابن والابنة لأن التفرقة في المعاملة يؤدي إلى شعور الأبناء بالغرور ، ويشير حفيظة البنات وتنمو عندهن غيرة تكبت وتظهر أعراضها في صور أخرى في مستقبل حياتهن ككراهية الرجال وعدم الثقة بهم ، وغير ذلك من المظاهر .

٧ - عدم إغداق امتيازات كبيرة على الطفل العليل ، فإن هذا يثير الغيرة في الأخوة الأصحاء ، وتبدو مظاهرها في تمنى المرض وكراهية الطفل المريض ، أو غير ذلك من مظاهر الغيرة الظاهرة أو المستترة ،

فبذلك لا يجوز إعطاء الطفل أى اعتبار أكثر من العناية التى يتطلبها المرض .

خلاصة ما تقدم ، ينبغى على الآباء والأمهات مهما كانت الفروق الفردية بين الأخوة لا يجوز استثارة الموازنات المؤدية إلى الغيرة . ولكن هذا لا يمنع بالطبع من إجراء المباريات بين تلاميذ المدارس من آن لآخر . مما يحفزهم لبذل الجهد ، وخلق الفرص أحياناً بتعويد التلاميذ تقبل الفشل المؤقت بصدر رحب . . أى على الروح الرياضية .

كيف تخلصت هالة من الحلم المتكرر المزعج

حضر إلى عيادتي رجل متوسط العمر ومعه ابنته التى تبدو أنها فى حوالى الخامسة عشرة ، كان واضح الحزن والقلق ، كما كان من الواضح أيضاً أنه ميسور الحال . وبادرنى بالقول :

جئت إليك يا دكتورة لتعالجى ابنتى التى تتأهب نوبات بكاء شديدة وخوف ليس له مبرر ، ولا سيما حين تستيقظ من النوم فى الصباح الباكر ، إذ أنها اعتادت أن ترى أحلاماً مزعجة تسبب لها الصراخ ليلاً . هذه الأعراض بدأت تنعكس على تصرفاتها فى المدرسة ، مما أدى إلى فصلها ، مع أنها كانت قبل ذلك مجتهدة ، جديرة بالثقة ، شديدة الشعور بالمسؤولية . . وقد بدأت هذه الأعراض بعد وفاة أمها منذ عدة شهور . . علماً بأن المشرقة الاجتماعية حاولت مرات متعددة أن تساعدنا نفسياً ، ولكن عناد هالة وشغها ازدادا . حتى إنه لم يعد من الممكن

بقاؤها مع زميلاتها . وما زالت تعاني من هذه النوبات التي تزعجنا جميعاً . .

ولما دخلت « هالة » إلى مكنتي أخذت تبكي بشدة وتولول من غير أن يكون هناك أى داع لذلك . ثم قالت لى بين زفرات النحيب المتقطع إن الاضطراب بسبب حلم فظيع يراودها باستمرار أثناء نومها . وبطبيعة الحال سألتها عن مضمون ذلك الحلم . فعرفت أنها ترى أمها التي ماتت منذ فترة وجيزة تظهر فجأة فى أحد أركان حجرة النوم ، ثم تتقدم نحوها ، وتجلس بجانبها على حافة الفراش ، وترفع يدها بيضاء كأنها تهم بخنقها . وفى كل مرة كانت تصحو من نومها مذعورة وهى تصرخ صرخات الاستغاثة قبل أن تزهق أنفاسها .

وبدراسة الحالة تبين ما يلى : كانت « هالة » الابنة الأولى لزوجين مثقفين ميسورين لديهما من المال ما يكتفى لرغد العيش ، ومن العلم ما يوفر لهما مكانة اجتماعية مرموقة . وكان الأب والأم قد تزوجا عن حب عنيف وتفاهم تام ، ولم يمض العام الأول على زواجهما حتى رزقا بابنتهما « هالة » فأغدقا عليها ما يعدقه الأزواج المتحابون عادة على باكورة أولادهم من الرعاية والعناية . غير أن سعادة الطفلة الصغيرة لم يكتب لها الدوام مع الأسف ، فبعد وقت قصير فوجئت الأم بأنها حامل للمرة الثانية فاضطرت إلى فطامها فجأة وبدون تدرج ، ومنعت عنها ثديها واستبدلت به الرجاجة ثم الكوب . . وعند ولادة الطفل الثانى عكفت الأم على إرضاعه مدة طويلة من الزمن ، وتلأه إخوة آخرون استأثروا باهتمام الأم .

وبحلل الطفل الثاني أخذت أحوال « هالة » تتغير . فلبجات إلى ممارسة عادات لم تكن تعرفها من قبل ، منها مصر إصبعها بالليل والنهار ، وكذلك التبول على نفسها ليلاً بعد أن انقطعت تماماً عن ذلك ، ولم يفهم الوالدان سبب هذا التغير وتصوراه لوناً من التمرد والعصيان ، قلباً إلى الشدة والزجر ، وكثيراً ما وصل الأمر إلى حد القسوة ، غير أن غضبهما وتأنيهما ذهباً أدراج الرياح ، وكان الأثر عكسياً إذ ازدادت الطفلة انغماساً في هذه العادات السيئة مما ضاعف ثورة الوالدين عليها ، نظراً لأنها كانت غاية في الذكاء سريعة الفهم . . متفوقة في دراستها . . فلا يمكن أن يلتمس لها عذر في ممارسة العادات السيئة وعصيان توجيهات أهلها .

ومرت الأيام و « هالة » تكبر فتكبر معها متاعبها الدفينة . وشاءت الظروف أن تضيف جديداً إلى أسباب قلقها واضطرابها ، وكان ذلك بسبب الخلاف الحاد الذي دب بين الزوجين المتحابين ، فأطاح بهدوء البيت ، وحرّم الأبناء وعلى رأسهم « هالة » من الشعور بالاستقرار والطمأنينة ، وتضاعف شقاء الأم وبكاؤها إلى أن أدى ذلك إلى إصابة الأم بمرض ألزمها الفراش مدة طويلة قبل موتها .

وذكرت « هالة » حادثاً معيناً حدث قبل وفاة أمها مباشرة : فحين كانت أمها في المرحلة الأخيرة من مرضها . شجعته إحدى صديقاتها بأنه لا لوم عليها إذا استولت على بعض ثياب أمها لأنها ستموت قريباً . وبعد موتها لن يكتشف أحد هذه السرقة ويمكنها التصرف في الثياب وبيعها واقتسام ثمنها . وفي صباح الغد حضرت صديقتها لتأخذ الثياب . .

وكانت لم تزل في دولاب الأم بحجرة نومها ، ولكن « هالة » كانت مترددة لا تستطيع أن تستقر على رأى في الموضوع ، وحاولت أن تقاوم إغراء صاحبها لها بالسرقة ، إلا أن صاحبها استطاعت أن تقضى على تردددها ، وهونت عليها الأمر . فانقادت « هالة » لإغراء صاحبها ودخلت حجرة أمها ، وبقيت صاحبها على باب الحجرة تشجعها وتشد من عزمها بإشارات من رأسها كلما رأتها مترددة . . وكانت الفتاة قد أخذت مفتاح الدولاب معها ولكنها وجدته مفتوحاً . . وعند فتحه أحدث صريراً ، فسقط المفتاح من يدها واستولى عليها دُعر شديد خشية أن تنقلب أمها وهي على فراش الموت فتراها ، وخطفت على عجل ما وقع تحت يدها وأسرعت فألقت بالمسروقات إلى صاحبها التي انطلقت بالمسروقات بعد أن وعدتها بالحضور في اليوم التالى ريثما تبيع الثياب . . وفى اليوم التالى كانت الصديقة قد باعت الثياب فعلاً ، وحضرت في الموعد ، ولكنهما بدلاً من أن تتقاسما الغنيمة قررتا التوجه إلى مدينة الملاهى . . وما تبقى بعد ذلك من النقود أنفقتهما في أحد محال الحلوى . ولم تفكر الفتاة في أمها التي تركتها بمفردها على فراش الموت بل انصرفت انصرافاً تاماً إلى أسباب اللهو مع صاحبها . . ولما عادت إلى البيت وجدت أمها قد لفظت أنفاسها الأخيرة ، ولم يحزنها موتها ، إلا أنها غضبت لوجود أقاربها في البيت وانقضاضهم عليها بالملام والتفريع بقسوة . وبدلاً من أن تخجل من نفسها صمرت خدها ورفضت أن تخبرهم أين كانت ، ولم تشعر بأى تأنيب لما أقدمت عليه من السرقة . . ولما اكتشف الأقارب العبث بالدولاب اتهموا أشخاصاً آخرين بالسرقة ،

ولم تشعر بوخز ضميرها ، ولم تكثر باتهام الأبرياء .

كانت « هالة » أثناء ذكرها كل هذه الحقائق تبكى بكاء مرّاً ، وصارحتنى بأنها لم تعد تطيق هذه الذكريات المؤلمة ، ولا ذلك الحلم المزعج الذى صار يرادها بصورة متكررة ، وذكرت أنها لم تذكر شيئاً للمشرفة الاجتماعية خشية أن تكف عن حبها بعد ذلك بسبب قسوتها على أمها .

استمرت « هالة » تتردد للعلاج عدة شهور ، أمكنتى من خلال الجلسات النفسية أن أساعدها على التخلص من الإحساس بالندم والشعور بالذنب ، مما أدى فى النهاية إلى اختفاء الحلم المزعج المتكرر الذى يرادها بصورة متكررة ، وفى نفس الوقت وجهت الوالد إلى الأسس التربوية الصحيحة فى طريقة معاملتها فى المواقف المختلفة مع إغداق الحب والعطف والتشجيع فى هذه المرحلة الدقيقة من حياتها .
ومما ساعد على نجاح العلاج - بالإضافة إلى تعاون الوالد وحرصى على إعطائها بعض الأدوية المهدئة التى يمكن أن تساعدها على التحكم فى انفعالاتها أن استدعيت المشرفة الاجتماعية . . وبعد أن بينت لها الوضع أظهرت استعداداً حسناً للإدراك والعطف ، فكانت تقضى معها كل ليلة - حسب توجيهاتى إليها - فترة طويلة قبل النوم تشجيعاً منها على التحدث عن أمها ، مما جعل خوفها من الحلم المزعج يقل تدريجاً حتى اختفى .

وبذلك أمكن من خلال الجلسات النفسية تخليصها من متاعبها النفسية واستقر سلوكها فى المنزل ، وعاد إليها اتزانها النفسى ، وانتظمت

فى المدرسة ولم يحدث منها أى شغب أو إزعاج بعد ذلك . وعادت إلى سابق عهدها فى المدرسة بالنجاح والتفوق .

الأخطاء التربوية :

تبين من حالة « هالة » أنها فى طفولتها الأولى شعرت بالحرمان من حب الأمومة بعد ولادة الطفل الثانى . . هذا الحب الذى يعتبر الحب الكبير فى حياة كل إنسان ، بل هو الغذاء النفسى الذى يساعد على نموه العاطفى . . ففقدان هذا الحب « هالة » أصابها باضطراب نفسى شديد ، بصدمة عاطفية شديدة تصورت معها أن أمها تكرهها ، ولا تريد أن ترضعها ، ولصغر سن « هالة » وقصر إدراكها لم تستطع أن تعبر عما فى نفسها أو تفهم معنى لما حدث ، أو تجد مسوغاً له ، فترسبت عقدة الحرمان مبكراً فى قرارة عقلها الباطن ، واختفت بين تلافيه المتعددة لترداد حدة بما حدث بعد ذلك عندما ولد الطفل الثانى ونال من الحب ما حرمت هى منه . وكانت الأعراض التى ظهرت هى التعبير عن الاضطراب النفسى الذى كانت تعانيه نتيجة هذه الأحداث .

وكذلك فإن ارتكاب هالة لسرقة ملابس أمها وهى على فراش الموت ثم توجيهها مع صديقتها إلى مدينة الملاهى غير مكرثة بحالة أمها ، هذا التصرف هو التعبير السافر عن الاضطراب النفسى والانتقام من أمها التى أهملتها فى طفولتها . . فالاضطراب النفسى يؤدى إلى الانحراف فى السلوك . . فالطفل حين يتعرض لظروف قاسية فى طفولته المبكرة ينشأ ولديه شىء يظل كامناً فى نفسه . وتقوم الظروف غير المناسبة بإظهاره

على شكل انحراف سلوكي . . فهناك إذن عنصر نفسي في الطفل لولا وجوده لما كان للبيئة السيئة أى تأثير عليه . وهذا ما سمى بالاستعداد للانحراف ، تساعد على تكوينه الأحداث المتكررة في الطفولة الأولى ، وهذا ما حدث في حالة « هالة » . إنها عانت في طفولتها الحرمان من العطف والحب والحنان وسوء المعاملة ، فكبت هذا الحرمان بداخلها إلى أن تقابلت مع صديقتها ، فأثارت الانحراف الكامن ، وبدأ بصورة سافرة في نظرتها في حادث السرقة ثم انحرافها السلوكي فيما بعد بالمدرسة الذي أدى في النهاية إلى فصلها . وهذا الانحراف في السلوك يدل على عدم التوافق بين العمليات النفسية من شعورية ولا شعورية ، مما يؤدي في النهاية إلى التعرض للأحلام المزعجة المتكررة . وهذا ما حدث لهالة . لذلك كانت مهمتى الأساسية في علاجها هي إضعاف الميل الكامن نحو الانحراف ، والبحث عن العوامل التي أدت إلى ظهور الانحراف ، سواء في المدرسة أو المنزل . وليس فقط القضاء على المظاهر السافرة لذلك الانحراف .

التحليل النفسي للحالة :

ارتكب الأهل في هذه القصة أخطاء غير مقصودة ولكنها دمرت نفسية الطفل الحساسة .

١ - فحرمان الفتاة من الرضاعة فجأة وبدون تدرج أدى إلى إحساسها بفقدان الحب الذي أوصلها إلى الاضطراب النفسي في السنوات الخمس عشرة من عمرها .

٢ - حين ظهر اضطراب الفتاة النفسي . . مضّ أصابعها والتبول

اللاإرادى لجأ والدها إلى القسوة والزجر والعقاب بدلاً من مضاعفة الحنان واستشارة الإخصائيين .

ولا شك أن الزجر والعقاب والقسوة ضاعفت في الاضطراب الذى أدى إلى الحرمان العاطفى ، الأمر الذى دفعها فى النهاية إلى ارتكاب السرقة كنوع من التعبير عن الانتقام .

٣ - عدم تفهم المدرسة لحالتها وعدم محاولة دراسة الوضع للوصول للدوافع النفسية الكامنة وراء السلوك المنحرف ، بل لجأت المدرسة إلى القسوة وفى النهاية فصلتها .

٤ - سوء معاملة المحيطين بها فى البيت لانحراف سلوكها فى المنزل والمدرسة وعدم تعاونهم معها ومحاولة فهم حاجاتها النفسية فى مرحلة هى فى أشد الحاجة إلى الفهم والحب اللذين حرمت منهما على مدار خمسة عشر عاماً .

٥ - الاضطرابات الأسرية التى كانت تحدث بين حين وآخر قبل وفاة الأم جعل الفتاة تفقد الإحساس بالأمن والطمأنينة والشعور بالانتماء ، مما أدى إلى الاضطراب النفسى والانفعالى اللذين ظهرا فى شكل الانحراف السلوكى .

كما سبق نرى أن الانحراف السلوكى الذى يصيب أطفالنا أو شباننا يكون له دائماً جذور عميقة فى مراحل الطفولة المختلفة ، يظهر أثرها بصور مختلفة فى مراحل العمر المختلفة . فالاستعداد للانحراف يظل كامناً ولا يظهر إذا كانت البيئة التى يعيش فيها الطفل هائلة متفهمة لحاجاته النفسية فى كل مرحلة . أما إذا كانت البيئة مضطربة مفككة

يسودها سوء المعاملة والأذنية فإن الانحراف الكامن يصبح سافراً وبصورة تؤدي إلى ضرورة الالتجاء إلى المشورة الطبية النفسية والعلاج بصورة عاجلة كي نجنب الطفل أو الشاب النتائج المدمرة لهذا الانحراف .

الحب يضيء لها طريق الحياة

جاءت الأم إلى العيادة ومعها ابنتها « وفاء » البالغة من العمر خمسة عشر عاماً تطلب المساعدة والعلاج لابنتها التي تأتي أفعالاً وسلوكاً غير طبيعيين : فهي اعتادت أن تهرب من المنزل ومن المدرسة ، وتتأهب نوبات صراخ بالليل تقوم على أثرها في حالة قرع شديد ، يضاف إلى ذلك أنها كانت تتبول لا إرادياً ليلاً منذ طفولتها حتى هذه السن .

وبدراسة الحالة تبين ما يلي :

نشأت « وفاء » في أسرة متوسطة الحال . فهي البنت الثالثة من ثلاث بنات . كانت تعيش مع والدين غير متحابين وغير متفقين ، دائماً في خلاف وشقاق . إذ أن زواجهما قد تم تحت ظروف لم يتعرف كلاهما على بعض قبل الزواج ، وكانت النتيجة أنهما مختلفان في المبادئ الفكرية والاجتماعية والعاطفية . . إلخ . الحالة المالية للأسرة غير متيسرة . فالوالد موظف بأحد محال القطاع الخاص يتقاضى مرتباً لا يغطي مصاريف الأسرة فيضطر إلى الاستدانة في معظم الأوقات . فيؤدي ذلك إلى الخلافات المستمرة بين الزوجين .

كان الوالد رجلاً ديكاتوراً في منزله قاسياً غير عطوف . الكلمة

كلمته ، والرغبة رغبته . . والويل لمن يناقشه حقه في فرض إرادته . . لأنه كان يعتقد في نفسه أنه أقوى وأعقل وأبعد نظراً من الناس كلهم ، كرامته الشامخة كالجليل الأشم لا تقبل له أن ينزل إلى مدارك الاعتذار عن غلظه أو الرجوع في رأى أو مجرد حكم أو أمر يصدره . . أمثال هذا الرجل المتعنت في تقديره لنفسه يمحون شخصية كل من حولهم ، وهو ما حدث بالضبط في أسرة وفاء ، فأمها كانت امرأة سلبية لا تجرؤ على الوقوف أمام زوجها في أبسط الأمور . تؤمن به إيماناً راسخاً وتجبب رغباته حرفياً ولا تهتز لألوان بطشه بأنياه وسيطرته التامة على حياتهم كأنهم عرائس خشبية يحرك خيوطها بأصابعه الصلبة . . ومع ذلك ففي بعض الأحيان كانت تتأهب نوبات تحتج فيها على هذه المعاملة التي لا يرتضيها إنسان له شيء من الكرامة . وكانت هذه المناقشات الحادة تحدث أمام الأطفال غير مباليين لما لهذا السلوك من تأثير نفسي سيئ عليهم .

كانت الأم تعتقد دائماً أن وفاء طفلة متهورة غير ناضجة لا يعتمد عليها في أداء أى عمل حتى بلوغها الخامسة عشرة من عمرها ، وتشكو دائماً من عنادها وإصرارها واندفاعها في تصرفاتها مما يؤدي إلى فشلها في كل شيء ، حتى إن الوالد كان يطلق عليها أسماء منفرة « كالملعونة » . ويضربها ضرباً مبرحاً إذا هي أخطأت في أى شيء ، وفي نفس الوقت يغدق على أختها الثانية المديح لحسن سلوكها ويقارنها دائماً بها . . فتزداد كراهية لنفسها ولوالدها ولأختها . . ويظهر ذلك في استمرار الانحراف في سلوكها . .

استمرت حياة « وفاء » في هذا الجو غير المتفهم لحاجاتها النفسية

بين أب قاس ، غير عطوف انعدم فيه الإحساس بالحنان ، وأم سلبية لا مبالية لا تهتم بها وبحاجاتها ومشاعرها ، وبين إخوة مبتعدين عنها حاقدين عليها . .

وأخيراً أشارت على الأم إحدى صديقاتها بعرضها للفحص الطبي النفسى كى يساعدها على تعديل سلوكها . . وعلاجها من الاضطرابات السلوكية الواضحة . . فاستجابت الأم لهذه المشورة وحضرت إلى علاجها . . كانت وفاء صغيرة الحجم ، ولكنها جميلة بدرجة تلفت الأنظار ، بيضاء البشرة فاحمة الشعر خضراء العينين ، رقيقة تتكلم بصوت هادئ ليس فيه لفظ خشن أو جرىء أو مبتذل . . كان يبدو عليها القلق وعدم الاستقرار . . كانت « وفاء » أثناء سردها للأحداث والمعاناة التى تلاقىها فى المنزل من قسوة وعقاب وضرب وإهانة من كل أفراد الأسرة ، تبدو الدموع فى عينيها وتنساب على خدها من شدة تأثرها بما يدور حولها . . كانت تبرر هروبها من المنزل لتتخلص ولو لفترة من العذاب الذى تلاقىه أثناء وجودها به ، إذ كانت تلجأ إلى إحدى صديقاتها لتمكث معها فترة ، ثم تعود إلى منزلها فى المساء فتلاقى قسوة الأب وحنقه عليها .

أما فى المدرسة فكانت المدرسات يعاملنها بقسوة حسب رغبة الوالد ظناً منه أن ذلك يحسن من سلوكها ويحبرها على المواظبة والدراسة . فكانت النتيجة أنها كانت تهرب من المدرسة أيضاً . . وتأخرت فى الدراسة . كان استعداد وفاء للعلاج النفسى كبيراً جداً ولم تتخلف ولو مرة واحدة عن مواعيد الجلسات التى أقررها لها ، وكانت تشعر بسعادة كبيرة عند حضورها بأنها وجدت من يشعر بوجودها ويحميها من البيئة الطاغية

التي تعيش فيها . .

كان يصاحب العلاج النفسي لوفاء توجيه الوالدين إلى الأسلوب الصحيح في معاملتها . . وأوضحت لهما الأخطاء التربوية التي ارتكباها في حقها من الناحية النفسية ، ونصحتهما بتغيير معاملتهما وإغداق الحب والعطف عليها اللذين افتقدتهما منذ طفولتها . كان الموقف فيه شيء من الصعوبة لمقاومة الوالد وعدم اقتناعه بتغيير أسلوب معاملته لها الذي كان يؤمن بصلاحيته ، ولكن بمحاولتي إقناعه وبالمناقشة العلمية ، وافق بعد مقاومة شديدة على المحاولة في سبيل التجربة لاتباع الطريقة المطلوبة منه . .
وحين وجد الوالد أن النتيجة في التحسن ظهرت بصورة مرضية وسريعة تشجع في استمراره في اتباع الأسلوب المفهم الواعي الذي يمنح الحب والعطف والحنان لوفاء ، والاهتمام بالنواحي النفسية ومراعاتها . .

وبعد فترة قصيرة من العلاج النفسي وبعض الأدوية المهدئة وتوجيه الوالدين ومعرفة الأخطاء التربوية التي كانا يرتكبانها دون قصد في تنشئة وفاء . . تحسنت حالتها وأصبحت في حالة نفسية هائلة هادئة ، واعتدل سلوكها وزال الانحراف وتوقف الهروب من المنزل والمدرسة وتوقف التبول اللا إرادي وأصبحت من المتفوقات في الدراسة . .

الأخطاء التربوية :

هناك بعض الأخطاء التربوية ارتكبتها الوالدان نحو وفاء دون قصد في طريقة تنشئتهما لها :

١ - ديكاتورية الأب وقسوته المتعنتة في معاملة وفاء وعدم محاولة

تفهم حاجاتها النفسية بأفق واسع ، بل اتجاهاه إلى أسلوب العنف والسب والضرب مما زاد في اضطرابها .

٢ -- تفضيل الوالد للأخت الثانية واستمرار الموازنة دائماً بينهما أدى إلى كراهية وفاء لأختها الأمر الذي كان يؤدي في بعض الأحيان إلى الشجار الحاد بينهما .

٣ - سلبية الأم وعدم منحها الحب والحنان لوفاء ، وانحيازها للأخت الثانية في معظم الأحيان زاد من توتر نفسية وفاء وكراهيتها للجميع حتى نفسها . . وأصبحت تشعر بعدم الانتماء إلى الأسرة مما دعاها إلى الهروب من المنزل ، وتفضيلها البقاء عند صديقتها وقتاً طويلاً .

٤ - سوء تصرف الوالد بتحريضه لمدرسات المدرسة لضربها وعقابها بشدة مما أدى في النهاية إلى هروبها من المدرسة .

٥ - يضاف إلى ما سبق الخلافات الأسرية الشديدة التي كانت تنبع من ديكتاتورية الوالد ولعدم وجود التفاهم بين الزوجين لاختلافهما في المفاهيم . مما سبق نرى أن وفاء فقدت الحب والحنان والعطف ، وحرمت من الدفء الأسري والإحساس بالانتماء ، فأنحرف سلوكها وساءت تكييفها ، مع بيئتها - المنزل والمدرسة - وأصبحت في حالة نفسية مضطربة ، كان ذلك التأثير يظهر في سلوكها غير الواعي . .

فعلى الآباء والأمهات ألا يحرموا أطفالهم من حبهم . . فالحب هو الغذاء النفسي للطفل الذي تنمو وتنضج عليه شخصيته . . فالحب الواعي المستنير يقتضينا أن نبدأ أولاً بإحاطة الطفل بحبو من الدفء ، دفاء شعورنا وحناننا وإقبالنا ، وبإعطائه من أنفسنا بسخاء ، فإن ذلك خليق

بأن يملأه ثقة واطمئناناً إلينا ، وبالتالي ثقة بنفسه واطمئناناً إلى العالم حوله ، وهو في أشد الحاجة إلى هذه الثقة لكي يخطو الخطوة التالية في مسيرته نحو النضج . .

فإذا شئنا أن بنشأ أبناءنا على الثقة والاطمئنان وأن يتجهوا إلى العمل البناء في تعاون وإيثار وأن يجدوا السعادة في البذل والعطاء ، فلنعطهم الحب أولاً ، لنعطهم الحب الواعي المستنير اليوم إذا شئنا لهم أن يعطوه لنا بدورهم في غد . . نعطهم الحب ، فإن فاقده الشيء لا يعطيه . . ليكون حبنا لهم حب الإيثار لا الأثرة - ، حب العطاء لا الأخذ ، حب التضحية والبذل ، الحب الذي ننسى أنفسنا فيه دائماً ، ونذكرهم فيه أبداً ، حتى نعهد لهم السبيل ليكونوا الأفراد الذين نعتز بهم ويفخر الوطن بأعمالهم .